شهلاء

خواطر إبليس

حنان مالكي

العنوان	**شهلاء .. خواطر إبليس**
المؤلف	**حنان مالكي**
حجم الكتاب	**21/14**
عدد الصفحات	**126 صفحة**
سنة النشر	**سبتمبر 2019**
الناشر	**دار أجنحة للنشر والتوزيع**
رقم الإيداع الدولي ISBN	**978-9931-700-39-5**

الآراء والأفكار التي يتضمنها هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن وجهة نظر الدار

جميع الحقوق محفوظة لمؤسسة أجنحة الثقافية

دار أجنحة للطباعة والنشر والتوزيع

www.ajniha.com

ajnihaeditions@gmail.com

00213.790.62.13.79

تصفيف الصفحات: إيمان عبد الحكيم

مراجعة لغوية: أسماء رمرام

المديرة العامة: أ. نوال جبالي

وكيلنا في الاردن:

الأردن- عمان- شارع الملكة رانيا العبدالله- الجامعة الاردنية- عمارة رقم 233 مقابل كلية الزراعة الطابق الأرضي / تلفاكس: 0096265373035 / ص.ب:184034 عمان: 11118 الأردن.

وكيلنا في مصر:

الغربية - طنطا - محلة مرحوم بجوار السنترال - جمهورية مصر العربية.

ت: 0020107600708 -00201113393920

أي اقتباس أو إعادة طبع أو نشر في أي صورة كانت ورقية أو إلكترونية ، أو بأية وسيلة سمعية أو بصرية دون إذنٍ خطيّ من الناشر يُعَرِّضُ فاعله للمساءلة القانونية .

هــي الأولى إليك...

في كل صفحةٍ.. رسالة تهمس لي سلاما.. يجعلني أبتسم...

تزيد عدّاد عمري أضعافا.. وتُقرئني التحايا ممن أحالوا القلم سلاحا في وجه الوحدة وكسر القلوب وشتات الأفكار..

تنقلني حيث كانت النوايا مغروسة بنبل أصحابها فلا تخط اليد الطاهرة إلا جمالا يعبد.

وما أبغي بعد زحام يومي إلا سكونا وسرحانا بعيدا عن حجاب كوكبي.

فلم يعد القلب الذي بين أضلعي إلا رفّ كتب مزدانا بفوانيس تخلق نورا دائما..

وبدون لفتة الحنين لذاك الصّرح...

فصباحي لم يزل نائما...

إلى ذات الضياء المنعزل.. والشعاع المنسدل..

أنتِ فضيلة متكلّمة على وجه المعـابد..

أنت..

مالكـــي حنان

صباحات الربيعية، تجملت بقوس الأحلام بعد ليلة ندية، "شهلاء" البرعمة المتأنقة المستبشرة زادها الدلال رقة سحرية، تلك الخيالية تجاوزت حدود المعلوم والمجهول، فحين تلج روحها الطاهرة يخيل إليك من صفائها أنك ترى انعكاس صورتك الباطنية في عينيها، فتصبح رهينا لسر فيها لا يقبل الإنكار، كقدر يحرقك نورها وتأبى إلا أن تلامسه وتأنس بلهيبه المشتعل تحت غاياته الخفية.

ملاك أبحرت في سواد عينيها زرقة السماء، حضنت أسرار الجمال الكونية بما لا يترك للمثيل مجالا. كانت أحلامها أكبر من سنها. رزقت من الهدوء الذي يشبه الحكماء الشيء الكثير، كان يقول والدها إنها تشبه جدتها بنظراتها المختلفة للحياة، وأنها ورثت منها أكثر من اسمها صاحبة الثماني سنوات، خطفت عقل والدها وصارت الرفيقة الصديقة، يحادثها أحاديث الكبار ويصحبها معه في كل مجالسه وهي تتأبط ذراعه، ولا ينفك ينظر إليها مفاخرا أصحابه بها، كأنه يحاول أن يثبت لهم أنها أفضل من الولد الذي لم يرزقه.

مع ذلك شهلاء كانت تشعر أنه لم يكن يفعل ذلك إلا لشعور بداخله يخفيه، رغم كل ذاك الحب البادي الذي أحاطها به، كان ينقصها شيء كانت تجهله حقيقة، لكنها كانت تحسه ولا تستطيع وصفه.

ذاك الشعور المغيب بقي يقف حائلا بينها وبين أن يكون لها من اسمها شيء من السعادة.

ويبعث في نفسها معركة لمقاومة الصمت القاتل والهدوء الزائف.

شعورها أن الحمل الذي على أكتافها النحيلتين وما تدري ما هو، سوف يمتص طفولتها ذات يوم قطرة قطرة إلى آخر ابتسامة طفولية.
حياتها بالمقاييس النظرية تصنف فوق معدل السعادة التي يستحقها أي طفل على وجه البسيطة، إلى أن دقت الساعة تمام الحقيقة الجلية.

تلك الليلة حين استيقظت من نومها على صوت غريب لم يكن غريب المصدر كلية، فقد كان صوت والدها يخاطب شخصا ما، ولكنه بدا غريب النبرة والحدة، لم تكن قد ألفت إلا صوت والدها الحنون الذي لم يرفعه في وجه أحد أبدا. استيقظت مسرعة، أطلت من خلف فرجة باب غرفتها فإذا بوالدها يكلم عجوزا عند باب المنزل وقد كانت تهم بالخروج، هي لم تكن قد رأتها من قبل لكن الظلام لم يسمح لها برؤيتها بوضوح، رغم أن القمر تلك اللحظة كان بدرا متقلدا عرش السماء إلا أن مسحات نوره الرباني جعلت وجه العجوز يبدو مألوفا بشكل مخيف، كاسترجاع ذكرى أليمة غرست في ذاكرتها عنوة وها هي تحاول كسر حاجز الزمن لتعود من جديد، فليس بعيدا عن قلبها ما يتراءى لها من خيالات وظهور هذه العجوز في هذا الوقت، وما كان يختلج به من خوف، حاولت الاقتراب أكثر فرمت خطوات مرتعشة خارج الغرفة ويدها ما تزال معلقة بمقبض الباب متأهبة لاسترداد أمانها في أي لحظة. وهي تسمع همس العجوز كضوضاء لوثت مسامعها فلم تدرك منها حرفا. كانت عجوزا أكل الدهر من جسدها كل اللحم، ولم يبقِ إلا العظم حتى غارت كل ملامح وجهها داخل الجمجمة وما بقي إلا عينان

جاحظتان، كانت وكأنها الشيطان في عيني الطفلة الصغيرة فبقيت خلف باب غرفتها تراقب بوجلٍ ضمّ من كثافة السؤال ما ضمّ.

****

همّت العجوز تنسحب كظلال المساء تحت ضوء القمر الباهت، جارةً أذيال ثوبها الشاعث تشدّ عصاها بجهد والرعشة لا تفارق يديها النحيلتين، تاركة خلفها صمتًا رهيبًا ومخلفة نبضًا لم يهدأ بقلب **إبراهيم** وفي وجهه ملامح غضبٍ وحيرة ليس لهما أي تفسير.. همست بعد مخاض عسير:

- أبي.. أبي

انتظرت هنيهةً أن يناديها ويحتضنها كما تعود، لكنه لم يفعل، فسارعت إليه واعتنقت قدميه بحضن خانتها فيه يداها الصغيرتان، لكنه سرعان ما انفلت ومضى ولم يلتفت، كانت تلك المرة الأولى التي تشعر الطفلة فيها بالوحدة الشديدة، رجعت إلى فراشها متثاقلة وبقيت هناك حزينة.

والدة **غادة**، الابنة المتحضرة، النامية خارج غلاف الجو المعتاد بالقرية السيدة **زينب**، التي بقيت تناضل لتفرض تقبلها في مناخهم بلا جدوى. عاشت منفصلة عن طباعهم كأنها تخالف شرعهم، مع أنها من دينهم. عيبها أنها ليست ابنة الخال أو العم، تزوجها إبراهيم لأنه وجد فيها الشريكة المناضلة التي يريد وفرضها على أهله كلهم.. لكن حبّه وحده لم يكفها. كان ينقصها احتضان العائلة الكبيرة.. فعاشت بصمت وكبت طويلين.. وقد شاء القدر أن يكون أول مولود لهما بنتا، لتزيد خيبتها، وضاع عندها أمل أن يحّبوها يومًا وهي تعلم يقينا ما يعنيه الولد في اعتقادهم.. فشعرت

بالهزيمة، لكن وأخيرا بعد صوم طويل -ثماني سنوات تقريبا- حملت واقترب موعد ولادتها... فرصتها لإعادة الأمل، **ابراهيم** ذو الخامسة والخمسين عاما... ها هو اليوم، بعد طول ينعٍ يخفي تحته ذبولاً شديدًا وانكساراً ، يتقمص روح الشاب مع أول مولود.. برغم مكانة **شهلا** في قلبه وحياته، وتمكنها من تفكيره واهتماماته لا ضير أن تمنى أن يرزق بالولد الذي سيحمل اسمه، فبعد السنوات التي عاش فيها بالقرية وما حظي به من احترام وتقدير، تقلد المسؤولية في كل كبيرة وصغيرة فيها، وباعتبار مجد والده الذي خلفه له من صيت حسن وعراقة منبت، فقد كان والده مجاهدا نبيلاً ومات شهيدًا من أجل الوطن، وكان أهل القرية يفخرون به ويتوجونه بتاج المروءة في كل محفل... زيادة على ذلك مقاومته لوعورة جغرافيا القرية، فواصل تعليمه خارج أسوارها بتشجيع من أخواله، زيادةً على حفظه القرآن الكريم بالكتّاب، كما هي عادة أطفال القرية حين يلزمون بالتربية الدينية، فقبل كل حرف من الأبجدية هناك أبجدية القرآن، ممّا كوّن لديه معارف أكسبته فن الخطابة ليبلغ مسامع أصحاب الشأن مناديا بانشغالات أهل قريته، التزم بالعدل والحكمة في قضايا الناس، وأعاد إحياء نفوس شبابها بقطرات من حبّ الوطن...

في تلك العشيّة ومع خيالات الغيمات السابحة على ضفاف القرية، عانقت ألوان الرماد الجبال في مشهد عظيم منذرة بقدوم شتاء سخيّ.. نزلت تلك العجوز بيبت **إبراهيم** رغم أنه كان يمانع دخولها بيته بشدة... لكن **زينب** أصرّت على إحضارها كونها قلقة بعض الشيء في أشهرها الأخيرة من

حملها وطلبت منها أن تتفقد حالها وحال الجنين، وبعد سويعات من مجالسة الزوجة وممارسة طقوسها المعتادة وبينما كانت تهمّ بالخروج تقاطعت مع إبراهيم عند الباب فالتقمته كأنما كانت تقتفي أثره، ورغم أنه أشاح بوجهه عنها إلا أنها صمدت في وجه عجز قدميها وأطالت الوقوف.. وبعد همس طويل... شحب وجه **إبراهيم** وخيّمت على وجهه سحابة سوداء أرعدت في وجه العجوز بكلمات غير مفهومة ثم دفعها لخارج البيت.. لكنها بقيت متشبثة بالباب وقالت له متلبسة ثوب شفقة مكذوبة وقد فصل باب البيت الخشبي بينها وبين أن ترى وجهه.

- **'إلا إذا...** ثم جالت ببصرها دورة كاملة كالمغشي عليه وأكملت.. **أردت أن تنظر إلى كتاب قدرك.....، فتعرف ما كان مخفيا عنك ولا تعلمه'**.... ثم تزيده ناصحة ببريق صديق مزيف وقد استقامت مغادرة عتبة الباب.

- **"واعلم أني لن أخبر أحدا –سرّك في بير-"**

ثم رحلت، وفي نيّتها أن تخبر جميع أهل القرية...

****

أوصد **ابراهيم** الباب خلفها وقد فُتّحت بقلبه سلسلة تساؤلاتٍ عقيمة، كلماتٍ رسخت بذهن **إبراهيم**، ((كيف ذلك)) وصورةٌ بقيت بمخيلته تتكرر كل حين وتلّح عليه أيّما إلحاح تريد إجابات، ممزوجة بخوفٍ وحيرة، رغم إيمانه الكبير وصدق نيّته وصفاء ذهنه، فزيادة على يأسه وحزنه وصدمته وشعوره الشديد بالإهانة ((ما هكذا ينبغي أن يكون.... ما هكذا؟؟؟))

ستذله تلك العجوز وسط أهله وعشيرته، سار إلى فراشه...كالظّل لم يكلم أحدًا.. لم يتعشّ، بقي ليلتها مستيقظًا ولم يغمض له جفن...

الأحداث التي نراها دائما جاهزة أمامنا. كتبت قبل أن نراها ونتحقق من واقعها.. ربما ليست هي الحقيقة الخفية، فالمرآة المكسورة لا تعكس الصورة الصحيحة.... فلنلمّ الزجاج المنكسر قدر الإمكان ونسرد التفاصيل كما حدثت في ذلك الوقت..

بعد الليلة الباردة الكئيبة حيث كان المطر يزاوج بين صدى ارتطامه بالأرض ورقرقة السواقي ووميض برق إلهيّ جاء يواسي وحدته.. كان ينتظر بزوغ الفجر مرغمًا... ولم يكن بيده حيلة، ومع أوّل خيوط الفجر، خرج **إبراهيم** متسللاً وبخطى مرتبكة... يجر أذيال الهموم مثقلا كاهله بكثير من الحزن والأسى متّجهًا نحو القدر... سلك طريقًا ذا مسلك وحيد... بقي يسير والنور آخذ يتسلل إلى القرية بخجل، ذهب إليها يقوده اليأس على جناح الخوف والترقب..

وقف برهة التقط أنفاسه... ثم دقّ الباب بسرعة، التصق بجدار البيت مجازفًا بأناقة هندامه أمام غبار الحائط الهشّ، حتى اصطدم بالشجرة النامية بجوار الدار فسقطت عمامته، التقطها برعشة ثم عاد ودقّ الباب بسرعة أكبر وهو يتلفت من حوله يمنة ويسارًا... إلى أن فُتح له الباب، فكأنما فتح له باب الفرج وهرول للداخل متسترا.

دخل **إبراهيم** إلى المنزل... وبعد أن أخذ له مجلسا بالفناء بادرها بلهفة:

- **"إن كلامك البارحة بقي عالقا بذهني... وأريد أن أتأكد مرة أخرى.. هل صحيح أن ابني سوف يولد -كما قلت-... و هل هذا الكلام مؤكد؟ إن كان هناك علاج سأعطيك قدر ما تشائين من المال"**.... ثم طأطأ رأسه منتظرا جوابها دون أن ينظر إليها... فتارة ينظر إلى الباب، وتارة إلى النافذة، وتارة إلى الأغراض الموزعة في البيت والمبعثرة على الأرض....

عرابة:

- **"إنني متأكدة تماما...كما أني أراك أمامي، فلدي خبرة طويلة في هذا المجال.. أنا ولّدت جميع نساء القرية... أنسيت؟ ولا شك في كلامي... يؤسفني ذلك يا بني..."**

ثم تقوم من مكانها متعكّزة على عصاها بقوة وبكثير من الجهد وتضيف:

- **".... قبل ذلك انتظر قليلا واشرب بعض القهوة...كنت قد حضرتها بنفسي قبل أن تأتي، أم أنك تفضل الشاي ...؟"** بنبرة فيها يقين أن إبراهيم يشرب الشاي وليس القهوة كنوع من علمها العجيب بأمور الناس المخفية.

يشد **إبراهيم** على ركبته بقبضةٍ جمع فيها أصابع يديه كأنما يعتصر قوته فيها ثم يمسح على لحيته.. ويقول لها وهي تهم بالتربع على الحايك القديم، وبينما تتعثر بالحصير جارة الطاولة الخشبية الصغيرة التي كانت قد وضعت عليها منذ قليل صينية بها براد قهوة ساخنا، وفنجان أزرق عاجي نظيف نحو المكان الذي يجلس به إبراهيم إكرامًا لضيافته:

- "إني أعرف ما القوة التي تدّعينها وكل أهل القرية يعرفون.. لذا وباختصار لا تطيلي علي الكلام.. سألتك إن كان هناك علاج لابني. مستعد لفعل المستحيل فماذا ترين!!"

وبعد هذا التصريح وكل ذاك الضعف المستتر الذي أشاح هالته وبعضًا من اليقين بقلبه المرتعش، رست بوجه **إراهيم** نظرةٌ قاتلة.. مخيفةٌ وضعيفةٌ بنفس الوقت، حاول إخفاءها بملازمته التحديق في الحصيرة وزخارفها المهتلكة وكان كشخص غريب عن نفسه... كلماته... نظراته... حركاته، كل شيء مختلف... **إنه الاكتئاب والخوف**..

ماذا تريد مني... أنت أيها الوحش الكامن لتنقض على ما بقي من هيبتي!!

****

العجوز **عرابة** لم تبال بكلامه وزادت من حالته سوءا، مستمتعة بلحظة انتصار اعتلت بها مجد السواد والظلمة تواصِل سكب القهوة في الفنجان وتدعوه إلى الشرب بكل برود... برود كاد يكسر قلب **إبراهيم**، الذي بقي يتابع حركاتها ونظراتها بعمق كبير بينما يحاول مسايرتها باحتساء القهوة وعيناه كالغروب المشتعل ((تراها مجنونة أو أن الخرف أصابها، فعُمرها الآن تجاوز القرن على ما أعتقد...)) يناجي نفسه بسريّة تامة خوفًا من أن يظهر ضعفه في عينيه، وتشعر بذلك فهو لن يمنحها هذا الانتصار، ثم بعد عدّة دقائق توجهت إلى صندوق بالزاوية وهي كالعادة متعكزّة على تلك العصا ويدها على جدار الطوب القريب تفتح الصندوق الحديدي وتنبش فيه للحظات محدثة ضجة وقرقعة، و**إبراهيم** يتلصّص محاولًا أن يرى عمّا

تبحث، إلى أن تلتفت إليه حاملةً ملفوفةً ورقية مربوطةٌ بإحكام تسلمها له ليتفحّصها، تبدو ورقة بيضاء ليس بها كتابة... مجرّد ورقة ملفوفة عدّة لفّات ومربوطة بخيط أبيض... ((ترى ماذا تعني؟؟؟ يتساءل **إبراهيم**)).

- **"هذه الورقة... هي الكتاب الذي أخبرتك عنه، وسترى الآن بنفسك كل شيء... لكن هناك شرط واحد عليك أن توافق عليه... ومن الآن... سيختلف في حياتك كل شيء، ولن تكون إلا راضيا"**

- **تقصدين في هذا الكتاب علاج ابني يا امراة!!** مستغربًا وبنبرة استهزاء واحتقار

ألقت بأذيال الصمت إلا من أنفاس العجوز التي كادت تحرق الكوخ..

يمعن **إبراهيم** النظر في الورقة تارة وفي معالم وجهها تارة أخرى وشيء ما بداخله يقول: شيء ما يحدث..... كان يشعر أنه سجين في عالم آخر منذ دخل منزلها وخطا أول خطوة بداخله.. ذلك المنزل الصغير بأطراف القرية يتذكر **إبراهيم** أنه عندما كان صغيرا ويلعب مع الأولاد، كانوا يخافون الاقتراب منه لعلمهم أنّه مسكون، وفجأة طافت بذهنه أقاويل نسوة القرية عنها والإشاعات التي تدعي أنها أخت للجن... وأنها العجوز التي لا تموت.... يقولون أنها كلما شارفت على الموت انتقلت روحها إلى جسد آخر.. ((هل حقا منزلها مسكون بالجن....)). كان **إبراهيم** يساوره الشك حتى كاد يفقد عقله من الخوف.... ((**أين آيات الله في قلبك يخاطب نفسه يقومها حتى لا تقع**)).

لكنه استفاق فجأة من هول موجٍ غمر عاطفته وأغرقه لولا أن تشبّث... والعجوز تخاطبه، لا تخف بني **إبراهيم**، إني بمثابة أمك المرحومة، اسمعني جيدا وما أريد إلا نصحك:

- **'اعلم جيدا أنا لا أطلب المال أبدًا، وإن طلبته فليس لي كما تعلم'** تم تخفض صوتها قليلاً وتقول: **"أنهم هم من يطلبه"** وتردف قائلة:

- **'عليك أن توافقني في كل كلمة أقولها وترددها بعدي يقينًا وتصديقًا، بعدها سيستبدل عارك وواقعك إلى ما تريد أن يكون تماما.سيولد لك طفل سيكون بمئة رجل، وإن وافقتني ستكتب له حياته بيدك والآن.. سيصبح كل ما تتمنى حقيقة".**

ترمق **إبراهيم** بنظرات فاحصة وهي ما تزال تصوّر له العالم الوردي الجميل كصورةٍ من الجنّة رافعة يديها فوق رأسها وقد سقط عنها خمارها من فرط حماسها.. ولغرض في نفسها... وتنتظر ردة فعله بينما تحضر له (الكتاب) الورقة الملفوفة تفتحها وتبدأ بكتابة خربشات غير مفهومة وهي تغمس ريشة تستخدمها للكتابة عادة لوثتها بعدة سوائل غريبة برائحة عفنة، وإبراهيم ما يزال يراقب متفاجئًا من كلامها وهي تقول له بكل ثقة:

- **أريد"شهلا" ثمنا لذلك. ستكون خادمتي للأبد. ستخدم الأسياد**... وكانت حينها أبخرة انسلال نور الشمس تحاصر سواد الغرفة وتقاوم الظلام..

ثم تواصل حديثها **'أنت يا بنيّ رجل لك هيبتك في القرية. أنا أضمن لك، لا أحد سيعلم بما جرى وسآخذ شهلا بعيدا عن هنا... فلا تقلق أنا أدبّر الأمر كلّه'** ثم تضيف:

- **"ولك مني وعد أن حياتك كلها ستتغير، سأضع لك حجابا لا يخطىء مقصده أبدًا..**

كان **إبراهيم** مسمرًا في مكانه طوال الوقت..كان مشدودًا من ذهول ما رأى منها.. من خبث ودهاء أفكارها، وفجأة... انقشع عنه ضباب الرهبة وعاد إلى طبيعته التي عرف بها.. وقال لها:

- **'هذا الكلام الذي تقولينه غير معقول، مستحيل أن يحصل.. ماذا كنت تظنين؟.. أني سأصدقك.. لا أبدًا... أنت مشعوذة.. لا يعلم الغيب إلا الله و"لَا يُفلِحُ السّاحِرُ حَيْثُ أتَى".. من العدالة الإلهية أن أكون هنا في هذا الوقت من الزمان لأرى مكرك ولينير الله بصيرتي.. أعوذ بالله منك تريدينني أن أكفر برب العزّة.. أعطيك فلذة كبدي.. عجوزٌ مجنونة...**

كانت عيناه تلمعان ببريق إيمانٍ وشموخٍ أرعدت أوصال تلك الساحرة فسقطت من هول قامته أرضًا وتيبست فاقترب منها وشدّ على إزارها بقوّة ودفعها نحو الباب... غضبت العجوز وحاولت إظهار ما تستطيع من مقاومة فصرخت عليه بما بقي لديها من جهدٍ قائلةً:

- **"ويحك ما الذي تقوله، أنا أسعى لفتح كنوز الخير والأرزاق لك.. و"شهلا" سيكون تشريفًا وتخليداً لها لم يحلم به أحد...".** تتهاوى على الحصيرة من فيض سخطها تتلمس عصاها بين الأغراض تمسكها بخبث،

تتجلى فيه الشيطانة التي لفّها السواد من كل صوب لتغرقه في الظلمة لكن **إبراهيم** يواصل جرّها نحو الخارج ويردفها قائلا:

- "**اسمعي.. لم يعد لك عيشٌ بيننا... اِحزمي أمتعتك وغادري القرية بهدوء، لا أريد أن أراك بعد اليوم أبداً**".

وبينما يهمّ بالمغادرة تضربه بعصاها التي تتكئ عليها على قدمه وعيناها كجمر خامد ينتظر أن يتّقد في كل ما يلامسه..

- "**جنيت على روحِك. ستلاحقك لعنة طوال حياتك. ستكون تعيسا ومتألما، ابنك هذا الذي تريد أن ترفع رأسك به... سأخطفه منك في عمر الزهور ومهما ابتعد سيعود هنا ليلقى مصيره، لقد قضي الأمر**".

لا يعيرها **إبراهيم** اهتماما ويغادر كوخها القديم ضاربا بأغراضها الملقاة في طريقه عرض الحائط غير مبال، وهو يردّد:

- "**افعلي ما تشائين... غادري القرية الآن، لا أريد أن أراك... ابتعدي عنا، أنت وجنودك... إن الله أقوى وأقـدر**".

يخرج من الكوخ مسرعًا تاركًا تلك العجوز ملقاةٌ كقشّةٍ بالية على عتبة بيتها وسهام الشرّ تهتز في عينيها والرغبة في الانتقام تحاصرها وتوقد في قلبها شعلة الحقد العمياء..

- ترى ماذا تنوي أن تفعل.....؟؟

وفي اليوم الموالي خطوات متسارعة وهمهمات خافتة بين الشوارع ودقدقة بيوت.. صمت مخفي في كثير من الكلام. أهل القرية مع فاجعة اختفاء **إبراهيم**، **إبراهيم** غادر القرية لا يعلم في أيّ ساعة من اللّيل ولم يعد، لم يلحظ خروجه أحد، هناك من يقول أنه وجد رداءه ملطخا بالدم ملقى بين الصخور بمخارج القرية... أعلى التلّة.. وهناك من يقول أن ليلة البارحة كانت ضبابية وأن صوت الكلاب الضالة غزت القرية، طفقت الإشاعات آذان الناس والكل يبدع في رسم ما جرى من محض خياله، خصوصًا أنه مرّت على القرية سنوات رهيبة اختفى فيها الكثير من الناس بطرق غامضة ومخيفة.. وتعددت فيها أسباب الموت... هل قتل حقا كما يقولون..

زينب المسكينة كانت تسبح في برك الدموع التي غمرت قلبها وفتت صبرها أشلاء ما كابدته بصلابتها للحفاظ على بيتها وحبيبها، وما كانت على وشك أن تجعله قصرا وحلما محققا. انهارت. لم تعد زينب إلا في ملامح الصمت والبكاء الداخلي، كانت تتراوح بين الغرف في ساحة البيت واضعة يدا على قلبها ويدا على بطنها وهي تنتظر خبرا من رجال القرية الذين هبوا للبحث عنه في أرجاء القرية وأطرافها البعيدة. قارب اليوم على نهايته ولم يعد، ولم يطفئ نار حيرتها خبر.

لم يعد إبراهيم إلى قريته، إلى أهله، مضى الوقت ولم يظهر... الجميع يتساءل، رجح الجميع فكرة أن يكون سقط في الوادي وغرق.. فالليلة كانت

ماطرة والوادي كان في أوج نشاطه.. واستسلم الجميع وهمدت تلك الطيوف من الأفكار والخيالات..

وفي غمرة الفوضى العارمة والخوف و الترقب، توجهت **شهلا** الصغيرة إلى أمها وقالت لها بصوت هادئ وهمست كي لا يسمعها أحد:

- **أمي، أمي.. أعرف أين ذهب أبي ..** وتردف قائلة:

- **أمي اسمعيني. ربما أخذته العجوز الشيطانة... رأيتها في اللّيل أمي، هل تسمعين**؟. وتلتفت حولها محدقة في عيون الحاضرين، من أقارب وجيران... لكن لا أحد يعير الطفلة اهتمامًا.. فصرخت فجأة بأعلى صوتها:

- **'أمي.. قلت لك أبي أخذته الشيطانة'** وانهمرت بالبكاء الشديد فالتفتت إليها أمها وتقريبا كل من كان في تلك اللحظة هناك ((...ماذا بها ؟)).

- **عزيزتي.. لا تخافي. اهدئي. لا وجود للشياطين، أبوك سيعود وسيكون بخير.**

ترى هل ذلك كان صحيحًا؟، حتى هي في أعماق نفسها ما كانت تصدق ذلك. وربما كانت الطفلة تقول الحقيقة التي لم ترد هي سماعها وتخاف منها.... ثم أمسكت بيد الطفلة وضمّتها بقوة إلى صدرها.. وبكت... ((أنا لا أدري ماذا أفعل، غاب **أبوك** منذ الأمس، لم يبن له أي أثر... ماذا أقول.... ماذا أفعل وحدي؟)). ناجت نفسها ثم رفعت رأسها والطفلة بين أحضانها ثم نظرت إلى الأعلى كأنها تدعو وتترجى ((...أين أنت؟؟؟ لماذا تركتني؟؟.. لماذا؟ وقد كنا نتحرق شوقا لولادة ابننا الصغير.. لماذا في مثل هذا الوقت!..))

وفجأة.. تدخل سيدة في منتصف العمر البيت حاملة بيدها أغراضا كثيرة، جارة هي وأحد أولاد الجيران صندوقا ضخمًا.... تدخل بخطوات مهتزة ثقيلة، وفي عينيها نظرات استغراب من تجمع النـاس في البيت وتساؤل.. ماذا يجري في بيت أخي؟؟؟

أخت إبراهيم الصغرى السيدة عتيقة مات زوجها منذ شهرين بسبب مرض عضال، فبقيت في بيت زوجها ولم ترد المغادرة.. حبا فيه... وشوقا لمكانه وفراشه وأنفاسه، فهي كانت تخلص له كل الإخلاص وتحبه كل الحب... فحين خطبها عارض جميع أهلها زواجها منه، لأنه كان فقيرا جدا وليس له عمل وهي ابنة المجاهد صاحبة العرق النبيل وأخت إبراهيم الرجل المحترم المتعلم، لكنها أصرّت عليه وغيرت رأي أبيها وتزوجته، وغادرت القرية معه، لكن شاء الله ألّا تنجب منه أولادا، فقامت بتربية ابنة أخ زوجها الذي ماتت زوجته وتركت له الطفلة فاطمة صغيرة، فحين عاود الزواج تمسكت عتيقة بالطفلة كثيرا وتعلقت بها فأرادت أن تربيها، ولم يعارض زوجها ذلك، فبقيت الطفلة عند عتيقة تعتني بها وترعاها كما لو كانت أمها، وكان زوجها لا يخالف لها أمرا، وكانا سعيدين بذلك، مما أثار عائلة زوجها عليها فمكروا بها.

وكادوا لها المكائد، وزرعوا في ذهن زوجها فكرة معاودة الزواج بأخرى لينجب الأولاد، إلا أنه كان يرفض بشدة في البداية، ويتحجج بأن عتيقة لن تقبل بذلك، لكنهم كانوا يصرّون عليه حتى كادوا يقنعونه فبقي كذلك في أخذ ورد حتى أصابه مرض ألزمه الفراش، ومات بعد سنتين من المعاناة

متأثرا به، ورغم رغبة عتيقة الأرملة المسكينة في البقاء ببيت زوجها لتمسكها بالطفلة فاطمة، إلا أن أهل زوجها طردوها وأخذوا الطفلة منها، واتهموها بأنها السبب في موته، زاعمين أنها حين رفضت زواجه غضب عليها ومات كمدا....

فجمعت أغراضها في يومها المشؤوم ذاك، وذهبت إلى بيت أخيها إبراهيم لتحتمي به أولا، ثم ليكلم أهل زوجها علها تعود إلى بيتها، ويعيدوا لها فاطمة قرّة عينها....

إلا أن الآتي كان أعظم وأمر...

****

سارعت عتيقة لإدخال أغراضها إلى البيت ووجهها لا يفسر من علامات التعجب والاستفهام، وكان الناس يتماوجون في البيت والأقارب يملؤون الغرف يتحادثون ويتحاورون في أمر اختفاء إبراهيم بين مصدق ومكذّب ومتفاجئ، والكل ينظر إلى زينب بين الفينة والفينة ((ترى ماذا ستفعل المسكينة؟؟؟)). عتيقة في وسط كل هذا الزحام تجر أغراضها وصندوق عرسها الغالي ذاك، وتنسل كالطيف داخل إحدى الغرف وتجد لها هناك مجلسا وعيناها سابحتان بين النسوة منصتة لأقاويلهن.

نعم، أخيرا عرفت...

تأسفن لحالها وكن يصبرنها بـ قولهن: **"لقد ترك لكم شهلا من رائحته تتذكرونه بها"**. وبينما هن كذلك التفتن إلى بعضهن يتحاورن، تقوم عتيقة باحثة عن زينب تنادي: **"زينب... أين أنت زينب..؟ وأين شهلا...؟؟"**. تلتفت

إلى الباب. هناك كانت زينب واقفة والطفلة معلقة بثيابها بشدة والدموع تملأ عينيها وهي تحاول إفلات الثوب من يد الطفلة بلا جدوى، تهرول إليها عتيقة وتحضنها بقوة وتبكي "**يا زينب ماذا حصل؟ أين إبراهيم؟ أين أخي العزيز؟... قولي يا زينب**.." وتشد على رأسها بين أضلاعها "**لم يبق سوانا أنا وأنت لنربي هذه الطفلة**"، وتبكي كثيرا.

عتيقة التي لم تبك زوجها لشدة صلابتها، حتى شكّوا في وفائها، تبكي اليوم دموعا كثيرة..... ((قطرة أخيها أفاضت كأس دموعها المملوء بغدر الزمن وقسوته))

((ليته كان حلما فأستيقظ منه... ليته خيال وليس حقيقة...))، تبكي زينب "**راح إبراهيم يا عتيقة... راح.....**" والطفلة شهلا واقفة بينهما وما تزال ملتصقة بثوب أمها لا تريد إفلاته، والخوف باد على وجهها والدموع قد رسمت خطوطا على خديها الجميلتين وكلمة "**أمي** ....." لا تفارق شفتيها

صورة ارتسمت في ذهن الطفلة ذات الثمانية أعوام، ولم ترد أن تمحى أبدا، ولم تشأ أن تغيب عنها ولو قليلا.... كانت صورة موقفة عند تلك اللحظة بتاريخها وتوقيتها... آخذة في التكرار من بدايتها مع كل ما تحمله من ألم، في كل مرة تنتهي... تبدأ من جديد... اللقطة ذاتها في كل مرّة، كانت هي حالة التعذيب...

بعدها، صمتت الطفلة صمتا أسكت كل شيء في دماغها، صمتا كانت خلفه فوضى كلمات عارمة.... لم تستطع إيقافها..

((أريد أن أعود إلى حضن أبي، ويقول لي إن حصلت على معدل جيد أشتري لك دمية جميلة، كم أتوق لألعب بأغراضي وألعابي.... متى يرحل كل هؤلاء الناس من بيتي...)). تكلم طفولتها الضائعة وما زال ملمس حضنها لأبيها البارحة حارا في يديها الصغيرتين، فحين انفلت منها كان موجعا، له طعم المرارة.

كلمات بقيت تدور في ذهنها شاقة طريقها بكثير من الألم... ((لماذا لا أستطيع الحركة..)) قد أصاب الشلل أفكارها تماما...

مرت الأيام، اليوم تلو الآخر، وكانت الأقاويل والإشاعات تخمد شيئا فشيئا ولم يعد الناس يتكلمون عنه إلا في بيوتهم أو في خواطرهم، عندما يتذكرون أعماله الخيرية التي ملأت كل ركن من القرية ويقولون ((الله يرحمو)) الحاج ابراهيم، كان رجلا عظيما، وفقط، لا يذكرون كيف اختفى ولا يسألون... قد أصبح ذكرى محفورة لكن بكثير من المرارة والحسرة، لدرجة أن ذكراه أصبحت تجعل أولاد القرية يعتقدونه مجرّد أسطورة وما عاش بين أهلهم حقا.

ومرّ الشهر وتلته أيام من الشهر الذي بعده وأصبح ما جرى ماضيا طويت صفحاته منذ زمن...

الفصل الثاني

شمس خجلى بين طيات الغيوم في الأفق البعيد، ووجه سماء حزين... على فراق يوم ها هو يرحل من جديد، وسكون رهيب، كان ينبئ بليل بارد وطويل. خيّم الهدوء، وسكنت الأرجل على المسير، إنّه منتصف الليل، لا أحد في الشوارع في هذه اللحظات الموحشة،

إلا هو....

لقد بقي يسير بالمدينة، بخطاه الحذرة، يسير كما تعوّد أن يفعل كل ليلة في هذا الوقت، يهرول تارة ويتوقف تارة أخرى، لا يكاد يبين إلا بخار أنفاسه المتصاعد وسط الظلمة، وصوت نعله المهترئ الذي يكسر الهدوء المخيّم، وفجأة بدأت السماء تمطر وأخذت تشتد، فتسارعت خطاه وهمّ يلتفت من حوله يبحث عن مكان يحتمي تحته، فتوجّه متعثرا ببرك المياه المنتشرة عبر الزقاق الضيق إلى شرفة منزل قريب بجانب محل الحلاّق المقفل، وبينما هو تحت الشرفة يسوّي ثيابه وينفض نقاط الماء من على ردائه، حتى فاجأه صوت قريب، التفت نحوه.. فإذا به رجل ككومة من ظلال، منكمش تحت ردائه الخشن متكئ على جدار الطوب المتلاشي...

كان هناك منذ زمن طويل، فلم يكن مبللا، ولم تكن تظهر عليه هيئة المتشرد، بل كان عاديا، لكن.. ((ماذا عساه يفعل هنا في مثل هذا الوقت؟!..)) يحدث نفسه، قد تعوّد أن يمشي وحيدا، كأنه ليس في القرية

أحد سواه، يراقب ويتحسس نبض الحياة من خلال الشوارع الساكنة، جدران البيوت القديمة، وأبوابها الموصدة، لا يعلم أحد وجهته....

((**ترى... من هو**؟)) يتساءل.... دون أن يعطي نفسه أي مجال للتفكير.

نظر إليه ليتفحّصه ثم عاد ونظر إليه مجددا، ولكن الرجل لم يتحرك، كان رداؤه ذا قلنسوة تغطي معظم وجهه، حين يومض البرق كانت تبرز لحيته الرمادية الطويلة، وبعض من تقاسيم وجهه الداكن الممسوح ببعض من خيوط الزمن وقد برزت شامة على خده بالغة السواد....

بقي الرجل ساكنا لبرهة... ثم فجأة قال:

- '**مازلت كما عهدتك لم تتغير**'. وصمت، ظنّ أن الرجل مجنون، ولم يعقّب على كلامه.

- **أنت فعلا رجل قوي، بعد كل هذه السنوات..؟ ولا أحد يعرف حقيقة ما بداخلك.. أليس كذلك..؟ أيها المحترم...**

هنا أصابت الدهشة **عمار**، ((عم يتحدث هذا الرجل؟؟ هل هو يكلمني))، فنبرة صوته لم تكن غريبة أبدا عنه، لكنه بدا كأنه يخاطب نفسه، لكن بصوت عال قليلا، وما ظهر له أنه يكلمه أصلا، فهو لم يكلّف نفسه عناء النظر إلى وجهه ولو للحظة... فازدادت حيرة عمار وما كان منه إلا أن أخذ مكانا على يساره وجلس، ثم قال له:

- '**هل أنت تتحدث إلي؟... أتعرفني؟**' التفت الرجل إليه ونظر في وجهه كأنه يعرض عليه أن يحدّق أكثر في وجهه.. ثم قال:

- **إذن فأنت لم تعرفني! جئت لأخطف روحك.**

وقف **عمار** مفزوعا، وكان سهرول مبتعدا في أية لحظة ولا يلتفت خلفه أبدا، لكن شيئا ما كان يمنعه، فبقي مسمّرا في مكانه وقد تيبست قدماه من شدة البرد، بقي واقفا في هذه الزاوية العتيقة من القرية... والريح تعصف من حوله والرجل الغريب جالس يحدّق إليه كأنه يقول له ((كيف لك أن تنسى!؟ يجب أن تتذكرني. فأنت لن تذهب إلى أي مكان هذه الليلة)).

ترى ما هذه الليلة الغريبة؟ في أي يوم من التاريخ نحن؟ ما الذي يحصل هنا؟ قد يكون هذا الرجل مجنونا وقد يكون هو الواقع... الحاضر الذي لا مستقبل له..

****

تأخّر الوقت، وازداد المطر غزارة... في الخارج، الرياح تكاد تقتلع كل ما هو ثابت على الأرض، هذه الليلة كانت صاخبة جدا منذ بدايتها، والغرفة موحشة، بدت فسيحة أكثر مما هي عليه، والشمعدان القديم في زاوية على الطاولة مشتعل يقاوم الظلمة المنتشرة من حوله، الغرفة وكل ما فيها يسأل عن غيابه، كم يثير الجنون هذا الانتظار وسط الصمت والقلق، لم تستطع النوم ولم ترغب في الاستلقاء على الفراش، فقد بقي قلبها يهمس لها وينبئها بحدوث أمر مريع، توجهت إلى النافذة عدة مرات، وفي كل مرة كانت تمسك بستائر النافذة تزيحها قليلا وتتفحّص الشارع وتتمعّن في كل ركن فيه، ((لعله قادم من بعيد، لعل ذاك هو خياله.... ولعل هذا الصوت الذي سمعته هو صوت خطواته عبر الزقاق...)).

وبقيت هكذا تكلم نفسها ساعات وساعات دون أن ترى أي أمل في عودته، تغلب عليها الخوف وعصفت بها هستيريا الأفكار الغريبة.. وبينما هي كذلك دخلت عليها الغرفة سيدة في حدود السبعين من عمرها نحيلة، شعرها رمادي مرتب بإتقان، وقفت بقرب الشمعدان المضاء بطرف الغرفة ثم قالت:

- '**..هل تسمحين**؟' ودون أي تأخير وبكثير من التوتر، وبنبرة الذي لا يريد أن يكلم أحدا ولا حتى نفسه، ترد **شهلا**:

- '**نعم...؟**' فاقتربت منها أكثر وشهلا ما تزال واقفة مكانها، فبفستانها الأبيض الطويل المعد للصلاة وشعرها البني المجعّد المنسدل على كتفها قد بدت كالتمثال، وعتيقة تخاطبها لم تشح ناظريها عن النافذة رغم الظلام الحالك، وقالت لها:

- '**كنت في الحمام، توضأت لصلاة الفجر، وأنا مارّة رأيت نور الشمعة من تحت الباب فاستغربت، فإمّا أنك استيقظت مبكرة أم أنك لم تنامي قط** ".

شهلا من شدة التعب لم تستطع أن تجيب وكل ما شدّها كلمة الفجر فتلتفت إليها وكأنما تتأكد من كلامها.. **الفجر**؟؟. وتعاودها الوساوس...

((**أتراه كابوسا، هل تحققت الرؤيا حقا؟ وما قالته عرابة وقع فعلا.. لا يمكن.. لقد مرّزمن طويل..**)) ثم رمت بجسدها الرشيق المنهك على الفراش دونما جهد. فقط سلمت نفسها لوزنها، ولم ترُدْ على عتيقة. تركتها واقفة تنتظر هناك وضوء الشموع يشرح تعابير وجهها الذي تحيطه علامات

التعجب والاستفهام، ((**ترى ما بها؟ لماذا هي منهكة إلى هذا الحد؟ هل هي مريضة؟؟؟؟**)).

السيدة **عتيقة**.. تلك المرأة التي لم يكتب لها الله أن ترزق بأولاد، فبعد وفاة زوجها بقيت وفية له ولم تتزوج، كرّست حياتها لتربية شهلا وأخيها عمار الذي شهدت ولادته، كانت أول من سمع صوته، وسمع أول ضحكاته، وكلماته وتابع خطواته الأولى.. وبقيت بقربهما ترعاهما بعد وفاة أمهما بكل إخلاص، حتى بدأت الشيخوخة تنخر جسدها، وقد أدركت معهما جميع تفاصيل حياتهما الماضية والحاضرة، إلا أنها مازالت صاحبة عقل راجح ونظرة بعيدة، وكانت شهلا ترى فيها أمّها لا عمتها، وما كانت تخذلها أبدا،

لمحت **عتيقة** ذلك اليوم، في وجه شهلا البريء أنها ربما كانت تبكي وأدركت أنها خائفة وقلقة ((إنّ هناك خطبا ما)) فقررت أن تقترب أكثر من شهلا وتسألها، علّ السؤال هو كل ما يتطلبه هذا الموقف الجاف في هذه الليلة الماطرة، فجلست على حافة الفراش متجاوزة الطاولة التي كانت على الحصيرة هناك... ووضعت يدها على رأس شهلا المستلقية في صورة الأم وابنتها ثم قالت لها:

- '**هل لي أن أعرف ما أقلق عزيزتي شهلا وأذهب النوم عن عينيها؟**'.

بنبرة تساؤل تحمل الاحتمالات الكثيرة، انتظرت لحظة ثم حاولت تغيير الموضوع بسرعة... وقالت لها:

- "**لماذا انقطعت الكهرباء يا ترى؟ ألم يدفع عمار الفاتورة.....؟**"

لكن **شهلا** لم ترد... كان جسدها على الفراش متيبسا كأنه جماد، والدموع تكاد تفيض من عينيها، وكان عقلها سابحا في ذكريات ماض كانت تريد أن تنساها، ذكريات مؤلمة تجعل كل مستقبل لذاك الوقت مجرّد وهم، ودقائق وثواني في حياة لم تكن تكتب أصلا في التاريخ... ذلك الماضي ((آه... لو يعلم ذلك الماضي أنه أوقف حياتها....)).

****

بصيص نور تسلل خيوطا تشق طريقها بين السحب السوداء المتراصة بالسماء بعدما بدأت تنقشع وتتبدد.. إنها آخر دقائق ذلك الليل الطويل، كان عمار ما يزال جالسا جوار ذلك الرجل الغريب.... لا يدري ما يقول مشتتا مابين أفكار كثيرة، إلى أن وقف هذا الأخير وهمّ بالمغادرة متمايلا، ومازال عمار يحدق في الأرض كأنه يعد أحجارها من شدة تركيزه وحدسه يقول أنه لا بد أن يتكلم بعد هذا الصمت الطويل.... لابد أن يقول شيئا.. أيّ شيء كي يوقفه... كي يوقف ثرثرة داخل رأسه بدأت تصيبه بالجنون... الآن لابد أن أفعل شيئا.. يقولها ويكررها يهمس بداخله وهو ما زال جالسا تحت الجدار والرجل واقف بعيدا عنه بخطوات، وبركة ماء بزاوية الجدار تعكس إنارة الزقاق الضعيفة أحدثها تدفق ماء المطر من ميزاب السطح، كانت تفصل بينهما.. وقال:

- **مهلا... يا رجل!!.. بقينا جالسين صامتين لمدة طويلة لم تكلمني سوى كلماتك الأولى. تركتني أحدّق إليك... لم تسألني ولم تنظر إلي..... ثم**

تقرر الرحيل هكذا!!.. .لا بد أن تخبرني من أنت وما قصدك بذلك الكلام الغريب...

انحنى الرجل بهدوء ليعدل حذاءه غير مبال وردّ عليه بكل هدوء وثقة:

- **أنا لم أطلب إليك الجلوس بجواري، أنت فعلت... ولم أقل إني أريد أن أسألك أو أكلمك حتى**، ثم ابتسم بخبث ونظر إليه بطرف عينه وقال ساخرا ... **أنت توقعت ذلك وحدك..**

حامت فوق رأس عمار أطياف عائمة، وصور مبهمة من ذاكرته كانت تحوم منذ زمن ولم يكن يعلم ما هي... أحس أنها تريده أن يسأل، أن يفهم ما يجري معه منذ تلك الحادثة، ربما ما كان يقال له مجرّد خرافة. لا يمكن أن تكون حقيقة... على أية حال ((وإن يكن... ما أقصى ما يمكن أن يحدث.. لا يهم)).

بالنسبة لعمار ما فات من عمره لم يكن يعتبره حياة، فحين تفكر أكثر مما ينبغي يملّ التفكير من نفس اللحظات.. فيشلّ العقل عن التفكير ((إن واجهت مخاوفي الآن فهذا ما انتظرت.. هذا ما عشت له، أو بالأحرى هذا ما كنت ميتا بسببه، فإما هنا أولد أو هنا أرحل وهناك أكمل موتتي)).

أخيرا عاد إليه صفاء ذهنه وقرر.

فقام والأفكار تتناثر من على جبينه، وقد زال عن قلبه الخوف ومُسحت كل تلك الأفكار من رأسه، هدأت ضربات قلبه وشعر بالراحة فسأل وفي عينيه جرأة. وبصوته قوة....

- **أنت... قلت كلاما غريبا عندما رأيتني، جعلتني به حائرا، رمقتني بنظرات شعرت أنك اخترقت بها روحي واطلعت على ما في داخل قلبي.... كأنك تبحث بداخلك عني، دون أن تسألني من أنا، حتى أني ...**

قاطعه الرجل مستغربا والتفت إليه مجددا وما تزال القلنسوة على حالها تغطي وجهه وقد أثقلها البلل.... وبدأت تسيل على حوافها قطرات المطر التي كانت متجمعة على قمة 'القلمونة' وقال:

- **وأنت أيضا حدقت في وجهي بقوة، وكأنك تحاول تذكري بإجهاد، أو استعادتي من حيث لا تريد، مع ذلك لم تسألني من أنا...** وأردف **فهل تخاف أن أكون شخصا ما؟؟** مبتسما وفي عينيه الخبث نفسه والغل.

في تلك اللحظات التي تشعر فيها أن الثواني تكاد تكون بمقياس الدقائق أو الساعات تجعلك تشك أن الوقت قد توقف كأنك تنظر إلى ساعة البيت مرارا وتكرار وترى الوقت فيها لا يتحرك فتظن أنها تعطلت وأنت في قلق انتظار شخص ما أو انتظار وقت الخروج من المدرسة أو عملك اليومي... شيء لا يحتمل، دقائق كانت في الحقيقة ساعتين من الزمن كان عمار وذلك الغريب جالسين بهدوء فلم يكن كلاهما تحت ذلك الجدار صدفة ليعرف أحدهما الآخر دون أن يسأل، لم يكن عمار يتوقع من الرجل أن يعرّف عن نفسه لذلك قام وفتح موضوعا للحديث فقال مستذكرا سؤال الرجل.

- **هذا لأني اعتقدتك شخصا ما أعرفه من قبل....**

ثم نهض والنور ما زال يشق طريقه بهدوء إلى القرية كاشفا بعض ما خبأته الزوايا المظلمة من ملامح أبواب المنازل ووقف أمام الرجل الغريب بجرأة..

رفع الرجل رأسه عاليا واضعا يده المتشققة على الجدار بحنين وقال:

- **أنا أيضا اعتقدت أنك شخص أعرفه.. فلا تبالِ.**

كان عمار ما يزال واقفا يراقب الرجل الغريب وهو يمشي مبتعدا وعلامات الاستفهام ما زالت تحيطه، لم يجرؤ أن يوقفه مرة أخرى.. فربما الرجل لا يعرفه ولا يعنيه بكلامه، لكن كل ما راود عمار لحظتها هو ((من يكون هذا الرجل وماذا يريد؟؟؟)) ثم سارع إليه ومشى بجواره محافظا على مسافة السلامة.

- **لم تقل لي.. يا رجل**
- **ما اسمك؟.**
- **ينادونني بوخناق**.....

ثم يضحك ضحكة من أعماق قلبه ويواصل كلامه:

- **يقولون... عندما كنت طفلا، كانت لدي سلسلة مصنوعة من الحديد أطارد بها القطط الضالة في الشوارع وأخنقها...**

وقد برقت عيناه وأصابته نشوة غريبة وهو يتذكر ذلك.. كأنما يحن لأيام طفولته المتوحشة...

ثم نظر إلى السماء نظرة خاطفة وواصل مشيته المتثاقلة يجر برنوسه القديم عبر برك المياه الراكدة وقد علقت به بقايا أوراق الشجر المتساقطة على الأرض، وبعض القاذورات في الشارع.

وحالما توقف عمّار عن ملاحقته والتفت عائدا إلى بيته اختفى الرجل وسط ضباب الفجر وأشجار الطريق وظلالها ولم يعد يبين له أثر....

وبينما عمار عائد إلى بيته وهلاوس الأفكار تلفه والاستغراب معقود على جبهته، سمع أذان الفجر فآوى إلى مسجد "الصغير" القريب بزاوية الشارع الضيق ليصلي جماعة وفي نفسه فكرة ملحة يحاول أن ينسى بها مخاوفه ((هذا الرجل بعقله مرض)).

وفي تلك اللحظات ساد السكون.. وعلا صوت المؤذن وهو يقول "الصلاة خير من النوم" وشيوخ وشباب يهمون بدخول الجامع قادمين من كل اتجاه.

****

ساعات الصباح الأولى، رائحة النسيم البارد المنعشة الممزوجة بقطرات ندى من الليلة الماضية، يسود الهدوء أركان البيت. قرقعة فناجين القهوة في المطبخ عتيقة ترتشف قهوة الفطور إلى جانبها شهلا وعيناها منتفختان. كانت لم تنم تلك الليلة، عينان منتفختان، شفتان متيبستان، شعر شاعث تحدق بفنجان الحليب الذي أمامها...

- **عمتي ناوليني براد القهوة. أريد أن أشرب اليوم قهوة "كحلة" بدون سكر،**

العمة عتيقة تنظر بإمعان في وجه شهلا، فليس من عادتها ذلك، فهي دائما ما تشرب حليبا فقط، بكثير من السكر على أساس أن القهوة تصيبها بمغص ((ماذا دهاها اليوم)).

- **شهلا لماذا؟؟ سوف لن تتحملي القهوة وحدها. اشربي معها قليلا من الحليب.**

- **والو... أريد أن يتوقف ألم رأسي ، إنه يكاد يقتلني.**

- **هذا لأنك لم تنامي..**

لحظات ويدخل عمار من باب البيت....

- **عمار جا**..... تهتف شهلا.

وتهرع إلى مدخل البيت، وعيونها ما بين الفرحة والغضب لا تفسران... تعاتب عمار على تأخره....

- **ألا تمل أعمالك هذه... لقد أرهقتني... ربي يهديك.**

عمار لا يرد على أخته ويتوجه مباشرة إلى المطبخ، حيث عمته جالسة هناك تفطر يلتفت يمينا وشمالا باحثا عن فنجان قهوة. أخذ فنجانا وجلس بجوارها على الطابوري الصغير ومد يده نحو براد القهوة حتى لحقت به شهلا وهي ما تزال تعاتبه بكلمات مفهومة وأخرى غير مفهومة.

- **لم لا ترد علي؟ أين كنت؟؟؟**

- **أنت لم تسأليني يا شهلا.. أنت تصرخين.**

يجيبها عمار بينما يسكب قهوته..

كالعادة.... كنت عند أحد المرضى. طلب مني أن أبقى إلى جانبه وتمسك بي وألح، تطلب مفعول الحقنة ساعات حتى يهدئ من ألم مفاصله.

- **عمار..... ألا تفهم، أنت لست طبيبا.. لماذا تتدخل في حياة الناس، أنت فقط ممرض تجيد حقن الإبر..**

تتدخل عتيقة فور أن رأت وجه عمار وملامحه وهو غير راض عن كلام أخته، فخافت أن يشتد شجارهما..

- **شهلا.. يكفي..**

وتمسك بيدها لتقودها خارج المطبخ.

- **شهلا..... هاذي خدمتو...**

لكن شهلا من شدة غيظها تواصل الصراخ والعتاب وهو لا يرد، وينظر إلى عمته حتى تجعلها تسكت، لأنه بالكاد يريد أن يتكلم، تقول عتيقة محاولة تهدئة الوضع.

- **اجلس أكمل فطورك**....

وترمي شهلا بنظرة تقول لها من خلالها ((اسكتي يكفي صراخا)).

- **فيما بعد.... سيرتاح ويتكلم....**

تهدأ شهلا قليلا وتستدير نحو صورة أمها وعيناها تغرقان بالدموع، تنزعها من على الحائط، وتمسك بها بقوة... وتخاطبها كما لو كانت تقصده بكلامها..

- **لست مجبرة بعد الآن لأن أفي بوعدي لها.... ديررايك**

وتهرع نحو الحجرة الأخرى.

لم يكن عمار يستوعب كثيرا من ردة فعل شهلا التي تبدأ في كل مرة يخرج ويتأخر قليلا، لكنه كان يعلم نصف الحكاية..... فقط الخطوط العريضة وبالتفاصيل التي كان يعلمها لم يكن يؤمن بها كثيرا، بقي هكذا يفكر وكأنه يحتاج دقيقة صمت وفي داخله بركان سينفجر، حتى تقطع العمة عتيقة عنه أفكاره حين تقول بصوت خافت كأنها تكلم نفسها بينما ترمي بذلك أن يسمعها....

- **شهلا مسكينة.... لقد عانت كثيرا بعد وفاة أمكما وهي التي اهتمت بك.**

تثيره كلماتها وتزيد من حدة غضبه، فتفوح رائحة احتراق آخر أوراق صبره. فلم تبق ولم تذر.

- **لم علي أن أتحمل صراخها...؟ وإن كانت ساهمت في تربيتي فأنت ربيتني أيضا، فهل علي أن أدفع ثمن ذلك الآن؟... ليتني مت إذن قبل أن تذلني بذلك...**

تشعر عتيقة أنها أخطأت ((ما كان ينبغي أن أتكلم..)) فتحاول تهدئة الوضع..

- **لا يا عمار أنت لا تعرف شيئا.**

- **ما الذي لا أعرفه، أخبريني أنت إذن.... لماذا لا تخبرونني أولا كيف مات والدانا... فأنتم تضطرونني للسؤال دائما ولا تجيبونني بحجة أن وفاتهما موضوع مازال يؤلمكما التكلم فيه.**

- **عمار... أنا لا أقصد أننا نخفي عنك شيئا إطلاقا**.... تصمت قليلا تستعيد أنفاسها.. تبتلع لعابها.. تضع يدها على كتفه.

- **وإنما أقصد أنك لا تعرف ما تشعر به شهلا... فأمكما ماتت وأنت كنت وقتها مازلت رضيعا حديث الولادة، شعرت أنها وحدها مسؤولة عنك في سن مبكرة، حتى أنا... كنت أعتمد عليها في تربيتك أكثر، فقد كنت أعمل في الخياطة ليلا ونهارا... لجمع المال....**

يهدأ عمار هدوءا به كثير من الحزن، يضع رأسه بين ركبتيه.. ثم يقول:

- **أعرف أنها أقاويل باطلة تلك التي أخرجتنا من قريتنا... تركنا كل أملاكنا وهربنا كمجرمين... آه.... لو كنت كبيرا فقط مثل الآن.... لما سمحت بذلك..**

- **يا عمّار... يا بني... انس هذا الأمر لقد مرّ وقت طويل... عش حياتك... فهذا قدرك، أختك تخاف عليك، لا تجعلها تخاف أكثر..**

- **إنها.. خرافات، لا شيء اسمه سحر مدفون أو تعويذة... ها قد مرّت عشرون عاما. لم أعد صغيرا أصدق هذا الكلام... ولن أقضي حياتي كلها محبوسا أنتظر ساعتي... لا بد أن أرى الحياة.... لأرد اعتبار عائلتي.**

ثم يتوجه نحو حجرته واثقا. يمر على صورة أمه يعيدها إلى مكانها وهو يقول:

- **معك حق.... وقولي لشهلا..... اجعليها تفهم ألّا تتدخل في حياتي.**

واستلقى على فراشه....

- **عمتي أحضري لي غطاء، وأطفئي ضوء الغرفة وأنت خارجة.**
- **ألن تصلي الصبح؟**
- **لا. صليت بالجامع.**

وضع عمار رأسه على الوسادة مملوءا ذهنه بحلقات أفكار مبعثرة وسيل حزين وطافت على قلبه تراتيل من زمن قريب لا تنفك تأسر روحه في كل لحظة منذ لقائه بالرجل الغريب الذي لم يفارقه من طيف وجهه سوى أنفه الطويل والشامة السوداء.. إلى كلام عمته وأخته. يتساءل ((هل أخبر عمتي وشهلا عنه..؟؟؟)).

ثم ينتبه لنفسه ((ماذا دهاني؟ إنها مجرد خرافات)) يقرأ سورة الفاتحة والمعوذتين ويستسلم للنوم...

في صبيحة ذلك اليوم... لم تكلم شهلا عمار ولم تذهب إلى حجرته. توجهت إلى أشغال البيت المتراكمة كالعادة.. تخاطب عمتها المتربعة في الحوش وهي ترمم ثوبا لها قديما.

- **عمتي أريد أن أذهب لزيارة الياقوت بعد أن أنهي أعمالي.**
- **شهلا... إني أشتهي على الغداء المردود... وحبذا لو يكون حارا.... فلتحضريه أولا ثم اذهبي.**
- **لا بأس... يوجد قليل من التمر وحبّات هرماس سوف أحضره كما تحبين تماما..**
- **لا تنسي... فستان جارتنا لابد أن تهيه اليوم فغدا ستأتي لتأخذه، تعرفين، نريد أن نكسيها زبونة.**

ثم تضع الثوب من يدها وتخاطب شهلا ناصحة:

- **إذا أردت أن تسمعي كلامي... لا داعي من التردد على بيت خالتك، تعرفين طباع زوجها.... إضافة إلى أن أفكارهم مختلفة عنا وبقاءك مع الياقوت مضيعة للوقت..**

- **عمتي... بالعكس، أشعر أنها من أكثر الناس الذين أرتاح معهم. تفهمني وأفهمها... تفهم تماما ما أحسّ به عندما أتكلم معها... وأنت تعلمين أني أشعر بالوحدة تماما كما تشعر هي**.. وتردف قائلة بينما تتوجه إلى المطبخ **وبخصوص أبيها فهو يعاملني بلطف تماما كابنته.**

كانت شهلا فتاة قوية الملامح شديدة الحزم مستعدة لقتال كل من يواجهها ولو بالسلام، أشبعتها الظروف صلابة فصارعت بين حلاوة البراءة وواقعها المر، فاستحالت كتلة من الغموض، بين جمالها وطيبة قلبها المفرطة كانت مسرحا للتناقضات ككائن متوحد فريد لا ينسب لأي جنس من الكائنات ولا يصنف بأي حال من الأحوال، وما كانت تلك الملامح إلا دفاعات وحصونا تخفي بها ضعفا شديدا وانكسارا وحاجة ماسة للأمان، فقدت والديها بفاجعة لا تنسى. خسرت ماضيها كله وأصبحت بلا مستقبل، عمة مكسورة ومنهارة وطفل مشؤوم.... لم تكن فتاة عادية للبعض، إلا أنها ككل البنات كانت تحلم وتتمنى، كانت تحب وتتخيل، كانت تريد أن تحيا... أن تعيش كبنات جيلها فلا تهتم إلا بنفسها لتعيش أحلى حياة، حلمت بفارس أحلام.... تخيلته بطلا قويا ورجلا محبا.... والآن تجاوزت الثلاثين ومازالت تحلم. ما زالت تنتظر من ينتشلها من وضعها البائس نحو واقع آخر

يكون أجمل وأكثر أملا يغير قدرها ولا يهم من يكون، تمنّت فقط أن ينتشلها من حلقة الزمن المتكررة قبل أن تهمد بها النبضات، فقط من يخبرها أن الحياة أجمل مما تراه وأنها أفضل مما تتوقع، لكن هوسها الوحيد أصبح أن تتوقع وتتخيل أحداثا وسيناريوهات لما يمكن أن يحدث وكيف لها أن تتصدى لكل ذلك، بل حتى أنها أهملت أن تكون الفتاة الحالمة تلك التي كانت هي أيام طفولتها إلى أن أصبح الحلم كابوسا وما تزال نائمة....

فأي حسناء نائمة هي.....

****

كان يوما مرهقا، كانت السوق مكتظة بالمشترين، كان الربح جيدا والحمد لله، عاد إلى بيته وهو يحمل بطيخة كبيرة بين ذراعيه. دق الباب برجله مرة وانتظر... عاود ودقه لكن هذه المرة بقوة أكبر. ((أين ذهبوا، ألا يسمعون الباب، ألا يريدون أن يفتحوا؟ قطعت البطيخة يديّ)). يحدث نفسه بغضب، فاضطر إلى وضع البطيخة من يده على الأرض. أخرج مفاتيحه. فتح الباب وركله بغضب شديد ودخل وهو يصرخ وينادي أولاده، عائشة... محمد.. ياقوت... لكن لا أحد يرد.. توجه إلى المطبخ. وضع البطيخة على الطاولة وخرج يجول بنظره بين الغرف باحثا، وهو يحدث نفسه الهدوء داخل البيت دليل على عدم وجودهم ((لا بد أنهم خرجوا....))، ثم صعد إلى غرفتها فهو يعلم جيدا أنها تحب أن تبقى وحيدة هناك، فتح باب الغرفة وإذا بابنته المدللة كالعادة تقابل نافذة الشرفة)) فالتفتت برأسها إليه..

- **أهلا أبي.. عدت من السوق...**

- **للتو عدت، أين إخوتك؟!**

- **قالت خالتي أنها ستذهب إلى بيت أهلها، فهم يحضرون وليمة من أجل عودة أخيها من الخدمة العسكرية كما تعلم، وقد اصطحبت الأولاد معها.**

- **آه نسيت... لا يهم، أنت وحدك إذن. تعالي ننزل معا. لقد أحضرت معي بطيخة كبيرة قطعيها وضعيها تبرد نأكلها أنا وأنت فقط اليوم.. لا إزعاج من الأولاد...** مبتسما ملاعبا ابنته

- **حاضر..**

- **بالمناسبة.. كيف تشعرين اليوم؟.. هل تحسنت عن الأمس؟**

- **الحمد لله.. أحسن..**

فجأة يسمع صوتا ينادي من الأسفل: **ياقوت، هل أنت هنا؟.....**

ينزل الأب محمود ويجد شهلا واقفة عند الباب المفتوح بهندامها المرتب وأناقتها المعهودة.

- **صباح الخير خالي... وجدت الباب مفتوحا..**

قال بلا تردد..

- **ادخلي شهلا يا بنيتي.. لقد نسيت الباب مفتوحا. فقد دخلت قبلك بلحظات.. جابك ربي..**

- **ادخلي المطبخ قطعي هذه البطيخة بينما تنزل الياقوت إليك. إنها قادمة.**

- **تدخل شهلا باستحياء إلى المطبخ.. تبدأ بتقطيع البطيخة بينما تنزل الياقوت متثاقلة عبر الدرج وهي تنادي شهلا.**
- **أهلا بك. سآتيك حالا..**

الياقوت فتاة مرحة وشغوفة بالحياة رغم إصابتها بداء السكري منذ ولادتها، ذلك المرض الذي أثقل كاهل والدها كثيرا.. برغم زواجه بخالة شهلا بعد وفاة والدتها، إلا أنها بقيت أعز من عائشة ومحمد إلى قلبه. كان يقول دائما ((مسو عيني وما تمسوهاش)) مما كان يثير غضب زوجته كثيرا حتى أنها كانت في بعض الأحيان تغار منها ومن حب أبيها الكبير لها، وقد كانت الياقوت هي الصديقة الوحيدة لشهلا منذ أن كانتا صغيرتين جارتين وقريبتين... رغم أنها تصغرها بحوالي عشر سنوات. إلا أن شعور شهلا بضياع طفولتها جعلها تستمد منها طاقتها وشعور الياقوت بالوحدة جراء حبس والدها لها وخوفه من أن تصاب بمكروه جعلها تلجأ لصداقة شهلا التي كانت بمثابة أختها الكبرى. بعد فترة وجيزة من الزمن اتجهت الياقوت جارّة شهلا معها إلى غرفتها قائلة:

- **اليوم... سأحكي لك سرا ولا تخبري به أحدا. لقد كنت أنتظر زيارتك.**

ثم تجلس بجوار شهلا وتقترب منها أكثر.

- **لقد كنت أكذب على أبي حين كنت أقول له إني ذاهبة إلى المركز. تتذكرين، الأسبوع الماضي ، أخبرتك بذلك... صحيح؟**
- **أجل، قلت أنك تتعلمين الخياطة لتصبحي مثلي..**
- **لم أكن أذهب لتعلم الخياطة.**

- **ماذا تقولين؟! أين كنت تذهبين إذن؟**

- **ارتعدت شهلا من الخوف وراودتها الأفكار الخبيثة وأمسكتها من يدها بقوة وهي تقول الياقوت وتكرر سؤالها أين كنت تذهبين؟**

- **لا داعي للخوف... لقد كنت أذهب إلى بيت عمتي... وتعلمين، أبي لم يكن ليسمح لي بالذهاب إليها نظرا للخلافات التي بينهما.**

- **ولماذا فعلت ذلك إذن؟** جلست شهلا ثانية وتنهدت بشدة بعد أن أوقفتها الرعبة والدهشة.

- **الياقوت، لو علم أبوك بالأمر سيغضب منك جدا.**

- **لن يفعل، لأنه لن يعلم...**

ثم تردف وفي عينيها بريق السعادة المعتاد الذي تعرفه شهلا جيدا...

- **تبقين الفتاة المتهورة التي أعرفها، متى تكبرين؟**

شهلا وعيناها نحو السماء من خلال الشرفة والشمس قد استقرت في وسطها تتكلم وتناجي شيطان الياقوت الذي لا ينفك يديرها كما يشاء.

- **اسمعي... عمتي لدى ابنتها منال جهاز حاسوب رائع، فيه الكثير من الألعاب، أذهب اليها لتعلمني قليلا... ولا أنكر أننا نلعب كذلك،** تبتسم قليلا وتواصل..

- **ليتك ترينه، إنه جهاز مسل آه... لو أستطيع أن أملك واحدا فأعلمك يا شهلا..**

شهلا لا تهتم بكل ذلك الكلام.. بل هاجسها الوحيد كان ((لو يعلم أبوها، ماذا سيحدث؟))

فقد استحضرتها تلك الحادثة القديمة عندما كانت الياقوت بسن الثالثة عشرة حين تأخرت في العودة للبيت بعد المدرسة وقد زعمت أن لعبة في محل بجوار المدرسة استوقفتها وبقيت تنظر إليها لعشر دقائق فقط، وتذكرت أيضا ماذا فعل أبوها حينها وكيف أنه عاقب الياقوت بشدة ولم يكلمها لأسبوع وحرمها من الخروج واللعب في الشارع، وتذكرت أنه ضربها حينها بشدة، نعم... ضربها ولم يكن يفعل ذلك أبدا إلا حينما يغضب، لقد ثار جنونه، وقتها لم يستطع أحد التدخل لتخليصها منه... والآن تفعل هذا؟.... إنها لا تتعلم أبدا!

فكرت كثيرا ، وابتعدت بخيالها عن الياقوت لكنها سرعان ما عادت بذهنها إليها وكانت ما تزال تلك الطفلة تسرد قصتها وإعجابها اللا متناهي بحاسوب ابنة عمتها، فقالت لها مغيرة الموضوع كله وعيناها في الأرض:

- **البارحة تأخر عمار في الدخول إلى البيت، وكعادتي غضبت، تشاجرنا، ولم أكلمه إلى الآن.. إني أخشى أن أبقى على هذه الحال طويلا أترقب وأخاف وأقلق وأغضب**.. وأحنت رأسها والحزن والاكتئاب بدآ يعترياها كعادتها.

الياقوت بلا مبالاة....

- **وأنت ما الذي يقلقك في تصرفاته؟، لم يعد صغيرا.. إنه يعرف مصلحته، أنت من يجلب لنفسك المتاعب، اتركيه وشأنه.**

ثم تلتفت إلى شهلا بكامل جسدها وتمسك بيدها وتقول:

- **بالمناسبة، لدي خبر مفرح لك، قد ينزع عنك هذا القلق.**

تواصل كلامها بعدما رأت شهلا غير مهتمة وما تزال حزينة.

- **عندما ذهبت إلى عمتي السبت الماضي وجدت عندها صديقتها، هي ليست من مدينتنا، أخبرتني منال أنها من عائلة غنية وقد كانت تكلمها حول زواج ابنتها وتحضيراته. وحسب ما سمعت أيضا هي تبحث عن خياطة تكون ماهرة تخيط لابنتها جهازها، فما رأيك إن اقترحتك لعمتي فتقول لجارتها، مؤكد أنها تدفع جيدا...** في هذه اللحظة تقاطعها شهلا وتشد على يدها بقوة أكبر وتتغير نبرة صوتها ودون أن تتردد.

- **جيد طبعا...**

شهلا وكأن الروح قد عادت إليها، الذي أسعدها في الأمر أنها تعمل بهذا المجال منذ زمن والأمر سيان.

- **هل تعرفين صديقتها أنت؟ هل رأيتها؟**

- **لا، عمتي تعرفها جيدا، هي صديقة قديمة حسب ما يبدو.. لا تقلقي، السبت القادم عندما أذهب أكلمها.. ما دمت موافقة، أنا واثقة أنها ستعجب بعملك.**

- **لا، السبت مازال بعيدا. اليوم الثلاثاء فقط، أخاف أن تعثر على خياطة أخرى.**

- **كما تعرفين لا أستطيع الخروج إلا يوم السبت، بحجة دروس الخياطة.**

- **لا بد أن نجد حجة إذن.. ما رأيك أن تقولي أنك قادمة إلى بيتي؟ والدك لن يمانع .**
- **لكن، لم يسبق أن ذهبت إلى بيتك، أنت من يحضر إلي في العادة.**
- **لا بأس، نجعلها استثناء، كان أكون مريضة مثلا.**
- **لكن متى؟ اليوم رآك بصحة جيدة وفي الغد تمرضين!؟، كما أخاف أن يلتقي بعمتك أو عماروسألهما عنك فننكشف.**
- **إذن ماذا نفعل** ؟... فكرت قليلا ثم قالت لها الياقوت وقد جاءت بالجوهرة.
- **لدي اقتراح، لم لا أعطيك رقم هاتفها وتكلمينها بنفسك؟**
- **أكلمها في الهاتف! أنا لم يسبق أن فعلت ذلك. كيف لي أن أجيد الكلام؟.**
- **ليس بالأمر الصعب. لا تعقدي الأمور، لدى عمتي هاتف في بيتها، نذهب معا يوم السبت، وتتكلمين من هناك.**
- **إذن لا مفر من الانتظار إلى يوم السبت**، ثم تواصل:
- **حسنا، تبدو فكرة جيدة .**

وبعدما أنهت شهلا والياقوت كلامهما دخل عليهما الأب محمود وفي يده صحن البطيخ البارد.

- **تفضلي شهلا ذوقي، إن مذاقها حلو. لم أفقد قدرتي على حسن الإختيار. ألا تريان أنه سر المهنة؟**، مبتسما 'علم كبير'، **عذرا خالتك ليست هنا، كنا حضرنا لك القهوة، مع أنك لست بضيفة..**
- **شكرا.. خالي، لا يجب أن أتأخر عمتي وحدها....**

وبعد الإصرار بقيت شهلا لبضع دقائق أخرى ثم غادرت ورأسها لأول مرة به أمل جميل بالمستقبل... تفاؤل غريب لكنها لم تكن تريد أن تحطمه. ولسان حالها في تلك اللحظة التي اشتقنا لها منذ وقت طويل ((أخيرا سأخرج من هذه البلدة وأرى العالم خارجها، الناس والحياة)) هل هذا ما كان سبب سعادتها؟ ربما ...!؟؟

في تلك الأثناء بينما ما تزال شهلا في بيت الياقوت تهم بالمغادرة، استيقظ عمار من النوم، اغتسل وارتدى ملابسه. خرج فوجد عمته في الحوش وهي تتعارك مع ذلك الثوب القديم ولم يبق لها الكثير على إنهائه.

- **عمتي صباح الخير.**
- **قل مساء الخير، سنصلي الظهر بعد قليل.**
- **تعلمين إني نمت متأخرا... ما زلت نعسانا.**
- **متى تعتاد على العمل في النهار كباقي البشر؟**
- **لا أريد الكلام في الموضوع، بالمناسبة أين شهلا؟**
- **عند الياقوت، لقد حضرت الغداء وذهبت، هل تأكل؟**

- لا، لدي شيء أريد أن أسألك عنه أولا، وقد يطول الكلام فيه، وجيد أننا وحدنا فلا أحبذ تدخل شهلا بأنفها في كل كبيرة وصغيرة تخصني.

هنا دق ناقوس الخطر برأس عتيقة وامتطت طوق النجاة، وفورا بادرته قائلة:

- أولا وقبل أي كلام، لم لم تدفع فاتورة الكهرباء، منذ يومين ونحن على هذا الحال، أم أنك اعتدت الظلام ولا يختلف معك الأمر كثيرا؟

- لقد نسيت الأمر، لكن ليست مشكلة فلنقتصد في استهلاك الكهرباء قليلا.

يبتسم وهو يعلم تماما أن عمته لا تمزح في مثل هذه الأمور ثم يردف - **سأذهب في المساء**-.

- إذن أنت تستهزئ بكلامي، اذهب الآن فنحن في المساء. ألا ترى؟ وبعدها نتكلم..

تنهض عتيقة بصعوبة تشد بقبضة يدها بقوة على ركبتها وقد تيبستا من طول الجلوس. تقوم بلف الثوب باستعجال وتقول:

- عمار ناولني القفة على يسارك، لدي زيارة مهمة علي القيام بها كنت قد نسيتها

هنا يقتحم عمار صمتها ويكسر طوق نجاتها المزعوم.

- عمتي، سأذهب لتسديد الفاتورة، وعندما أعود عليك أن تجيبيني على كل أسئلتي، أريد أن أعرف منك كل شيء عن عائلة أبي، أعمامي وأعمام أبي وكل ما جرى في ذلك الوقت بالتفصيل.

يلتفت إلى يساره، يمسك بالقفة المعلقة بنافذة غرفة شهلا، يمدها لها مواصلا كلامه:

- ولا أخفيك... لدي إحساس أنها مكذوبة وملفقة، أريد الصورة كما حدثت والحقيقة كما وقعت، وبعدها أنا من يقرر ماذا يصدق، وإلا فإني لابد سأعرف الطريق بنفسي نحو القرية ولن تستطيعي إيقافي حينها.

عتيقة بدون حصونها المنيعة التي بنتها منذ أن كان رضيعا صغيرا إلى أن أصبح كبيرا ويرى أبعد وأعلى من حصونها وسيرى قريبا ما بداخل الحصن وما تحاول على مر هذه السنين إخفاءه.

كانت ما تزال تمسك بالقفة بقوة ورعشة اعترت جسدها بالكامل. عمار كان ما يزال ممسكا بالقفة كذلك كأنه لا يريد إفلاتها قبل أن تعده ويقدم لنفسه ضمانات أنها لن تفر مجددا وأنه لن يضعف كما اعتاد، كانا واقفين في الحوش الصغير الذي نمت فيه أحلام الطفلين وكبرت، ثم استدار متوجها نحو الباب...

هناك التقى بشهلا داخلة إلى البيت والتفاؤل يغمرها بينما كان عمار مقطبا حاجبيه. لقد اعتادته متوترا لكن نظرته الآن شكلت تهديدا كبيرا لقلاعها تلك التي قد تنهار الآن في أي لحظة.

خرج عمار (وفي ذهنه دليل واحد يوقف كل آماله عليه).

التفتت شهلا إلى عمتها والقفة بيدها والصمت يلفها شاحبا وجهها.

عمتي... لكنها لم تتكلم..

نظرت إليها بحزن شديد.

- حان الوقت.. لا داعي لأن نخفي عنه، أنا لا أستطيع، لم أعد أحتمل، تعبت من الكتمان والخوف.

شهلا لم تتحمل الكلام. انقلب وجهها المتفائل فجأة إلى وجه حائر وعبوس وانتفضت قائلة:

- لا... لا عمتي عاهدتني أن يبقى سرا وأننا أقفلنا ذلك الكتاب ولن نفتحه مجددا. لقد تعاهدنا..

عتيقة سارت إلى الغرفة، ألقت بالقفة من يدها بلا مبالاة وارتمت بصعوبة على الفراش وشهلا تنظر إليها كأنها تؤكد لها أن الأوان قد فات...

بقيت الحيرة تأكل رأس شهلا وهي تقول في نفسها ((هل مقدر لي ألّا أفرح أبدا في حياتي، وترفع رأسها للفضاء، ربي أنا فقط تفاءلت. لم أفرح بعد.. كان تفاؤلا، كان أملا.. كانت مجرد فكرة جميلة أن حياتي ستتغير لا يهم كيف، المهم أن تتغير وأستطيع أن أهرب من هذا العذاب الممل. لقد سئمت كل ذلك.

ثم تضيف قائلة بنبرة مختلفة داخل رأسها المشحون بالكراهية داخل ذلك المنفذ الصغير الذي استمرت في غلقه مرارا وتكرارا الآن سيفتح على مصراعيه..... لا.. قاومي أكثر يا شهلا. لا تدعي شعورك بالكراهية يطغى عليك الآن، بعد كل هذا الزمن لا تفتحيه، دعيه مقفلا أو ابني عليه جدارا ،

أضيعي مفتاحه حتى لا يفتح أبدا أرجوك...، تتوسل شهلا نفسها وذلك الشر الذي كان ومازال يسكنها بدأ يكبر ويكبر ولم تعد تستطيع السيطرة عليه، قد فاق الحدود... يخاطبها ذلك الصوت بداخلها: عمار منذ ولادته منذ أن جاء إلى الحياة، جاء حاملا فأسا حطم بها حياتك ومازل يفعل بك ما يشاء، ليته لم يولد، ثم تصرخ فجأة في وجه عتيقة.

- **أنت السبب في كل هذا** ، ثم تضع رأسها بين ذراعيها وتبكي بشدة وتناجي ربها، ربي اغفر لي..

قد حان وقت الحقيقة ولا بأس بخيط ولو كان زائفا نتبعه إلى نهايت،ه فقد يؤدي إلى الحقيقة في النهاية، من يحاول طمس آثار الجريمة البشعة والخيانة العظمى. خلف ذلك الستار لا بد من وجود مجرم يشهر سلاحه ليقتنص ضحيته القادمة لكن لا بد لسيف الحق أن يقطع أصوله وجذوره العفنة بعد العناء. لا بد لا بد.....

سار عمار والشمس في ذلك اليوم سطعت وأشرقت فوق كل شيء لتطمس الظلام والغموض وقد ارتوت الأرض من أمطار الليلة الماضية ولم يبق من أثرها إلا القليل. كان يسير متعبا مهموما وفي قلبه يقول ليتني تمسكت برأي ولم أخرج هناك، ليتني واجهتها الآن، قد تتملص ثانية ولن تجيب.. يبدو أنها لن تخبرني بسهولة. أعرف كيف أجعلها تتكلم والمساء سينتهي كل شيء.

فجأة يخاطبه ذلك الصوت مجددا.

- **يبدو أنك عدت. لكنك مختلف هذه المرة أيها الفتى.**

أشرقت عينا عمار. ها قد وجد ضالته وبعيني الغريب النظرة ذاتها لكنها كانت تشع بالغضب والحقد والانتصار هذه المرة.

- **أجل عدت. أريد منك خدمة...**

- **أعرفها يا فتى**، يمد يده الخشنة المخيفة إليه يضعها على كتفه. يضغط بأصابعه القوية وكأنه سيغرس أظافره بها، والابتسامة علت وجهه، قد وجدت ضالتك عندي...

- **كيف؟!! إذن أنت تعرفني ولست رجلا مجنونا كما ظننت.**

- **وإن يكن.. ألا تريد أن أساعدك في فك رموز اللغز الذي يؤرقك؟**

- **بلى....**

وسار معه عمار إلى وجهة لا يعرفها غير مبال. تاركا كل ما كان من حياته خلفه نحو المجهول يجره الفضول، وكثير من الفضول قاتل...

****

جلست شهلا بقرب عمتها... وقد كانت عتيقة قد أمسكت برأسها وافترشت ركبتيها مثقلة متوترة.

- **عمتي أين ذهب عمار؟**

- **لا أدري. قال سيدفع الفاتورة** ... تقولها وهي تعلم تماما أن ذلك ليس صحيحا.

- لا يا عمتي لم يذهب.. لقد خرج غاضبا. أنا أعرفه كما أعرف شكوكي ومخاوفي

.... لكن عتيقة لم تجبها.

ترفع عتيقة رأس شهلا وتحدق بوجهها المبلل بالدموع وتقول في نفسها ((نعم إنها لم تعد شهلا الصغيرة ... لا.. لقد أخطأت في حساباتي. والآن ماذا ؟؟؟))

- سوف أخرج وألحق به ولا داعي لأن تمسكيني من يدي كما كنت تفعلين عندما أهرع لفعل شيء متأكدة منه لتردعيني.

ثم تتوجه شهلا إلى الباب وكلها ثقة أن هذا اليوم يوم الحقيقة المنشودة.

- لا... شهلا انتظري، قررت أن أكون صريحة معكما لكني خفت وترددت

لكن شهلا تجاوبها:

- لم أعد أبالي ولم أعد أهتم، فمن الأولوية أن يعود عمار أولا، بعدها كوني صريحة معنا وقولي ما تشائين.

خرجت شهلا من البيت وخرج عمار قبلها كل إلى وجهة لا تعرفها العمة العجوز فكما خطفت منها فاطمة الصغيرة فلذة كبدها التي لم تلدها من رحمها، الآن نفس الشعور بمرارته يتكرر، تقع أرضا وقد خارت قواها وأنهكها القلق والخوف. بقيت مفترشة الأرض في الحوش والباب أمام ناظريها مفتوح على مصراعيه يتحداها أن تصل إليه وتحاول إغلاقه لتحمي عشها الصغير.. طار الحمام وليت في السماء مصيدة للصقور المفترسة.

بقيت شهلا تهيم في الشوارع التي اعتاد عمار السير فيها. زارت المحلات وطافت وسألت في البيوت كما لو أنها تسأل عن طفل صغير تائه لا أحد عرف أين ذهب لا أحد، ذهبت نحو مركز الدفع عله ذهب هناك ولم تجده، تعبت وأرهقها التفكير، لكن واصلت السير. سارت طويلا حتى وصلت إلى باب الرجل العجوز الذي كان عمار يزوره كثيرا ويقضي عنده وقتا طويلا. ترددت بداية الأمر، لكنها قررت في النهاية أن تدخل وتسأل.. وفي قلبها أمنية أن تجده عنده بعد كل هذا البحث...

دقت الباب وانتظرت قليلا حتى فتح طفل صغير لها الباب ونظر إليها. سألته:

- **هل جدك هنا؟**
- **نعم**
- **هل عمار هنا؟**
- **لا**

إجابات مختصرة جدا ما كانت لتروي فضولها..

- **أمك هنا لا.. لكن جدتي هنا** ثم يسرع بالدخول قبلها مناديا جدته.
- ((حسنا سأدخل)) ثم انسابت بسرعة إلى المنزل كأنها كانت تنتظر سببا للدخول.

تقدمت نحوها الجدة.

- **أهلا يا ابنتي ادخلي، أنت أخت عمار أليس كذلك؟**
- **نعم كنت أود أن أعرف فقط إن كان هنا..؟**

- لا... مرّ على"الحاج" منذ قليل، تكلم معه قليلا، ثم رحل فقد كان هناك رجل ينتظره عند الباب.

- حقا..! منذ متى ؟

- منذ حوالي ساعة

- هل أستطيع ان أكلم زوجك قليلا؟ أحتاج أن أسأله فقط.

- انتظري قليلا سأرى إن لم ينم بعد.

وبعد هنيهة عادت وطلبت منها الدخول.

دخلت شهلا المنزل الذي لم تدخله قط في حياتها وتكلم أشخاصا لم تقابلهم من قبل ولم تكن لها معهم حوارات.

كان الجد مستلقيا على الفراش وفور أن دخلت نهض ووضعت له زوجته متكأ قائلة:

- ربي يحفظ عمار. إنه لا ينسى موعده أبدا. يأتي إليه كل ليلة يعطيه الحقنة من أجل ألم مفاصله ويبقى معه قليلا.

- أجل إنه يكلمني دائما عنه... ثم تردف باستعجال:

- كنت أريد أن أسألك فقط عن عمار. قلقت عمتي عليه. خرج لحاجة لكنه تأخر كثيرا... علمت أنه كان عندك منذ قليل صح؟

- نعم كان هنا واستغربت قدومه، فلم يعتد القدوم في مثل هذا الوقت، كان غريبا.... كلمني قليلا عن أشياء حدثت في الماضي ... منها ما لم أعد أتذكره أصلا!!

- تبتسم ابتسامة مصطنعة وتسأل بحيلة.

- عن ماذا سألك مثلا؟؟

- سأل عن اليوم الذي قدمتم فيه لتسكنوا في حينا، ثم سألني عن قرية صغيرة أذكر أنها كانت بالجبال وكان هناك واد عندما تتساقط الأمطار بغزارة تقطع الطريق المؤدية إليها حتى ينخفض المد، أذكر أنني ووالدي مررنا عليها واضطررنا للبقاء فيها زمنا طويلا حينها. يسكت للحظات ثم يواصل كلامه وشهلا منتبهة إليه بحذر وتركيز كبيرين.

- أيضا سأل عن الطريق إليها وأنا لم أعد أتذكر لقد كبرت يا ابنتي...

وبسماع هذا الكلام أدركت شهلا أن الأمر لم يعد مجرد شكوك. أصبح واقعا، أخوها الصغير أصبح يريد العودة إلى القرية حيث قالت العرابة في ذلك اليوم لأمي 'خطأ إبراهيم سيدفعه ابنه وأنه مهما ابتعد سيعود إلى هذا المكان ليلقى مصيره ولو طال الزمن'. عاودتها الذكريات وسرحت في ذلك اليوم التاريخي الذي لم ينفك يتركها بحالها، لطالما تأخر عمار خارج البيت، كانت تقول: ربما ذهب إلى القرية بشكل ما ولن يعود بعدها ((ها قد حصل ما توقعته. ارتاحي الآن أيتها النفس وصلت لمرادك، الآن كيف العمل؟ ما أفضل السيناريوهات التي كنت تسردينها والتي يمكن أن تحصل... ثم من هذا الرجل الذي قالت أنه كان معه؟ (تحدث شهلا نفسها كالعادة).

خرجت من ذلك البيت لا تعرف إلى أين تتجه، قد يكون سلك هذا الطريق أو ذاك، ما الذي ينوي فعله؟

ثم لم تجد حلا أحسن من العودة إلى البيت وتخبر عمتها بما علمت.

****

عادت شهلا إلى البيت وأثلجت صدر عمتها برؤيتها فقالت لها وهي تعانقها بحرارة:

- **حبيبتي هل من أخبار عن عمار؟**
- **لا لم أجده، لكني عرفت أين ذهب.**
- **أين؟؟؟**
- **إلى قريتنا القديمة يا عمتي.**
- **لا يمكن... هو لا يعرف الطريق إليها.**
- **لا... لابد أنه سأل، وعرف، ثم إن هناك من يساعده،** ثم انهارت باكية... وهي تقول:

- لقد انتهى كل شيء. اختفى مثل أبي. إنه لن يعود.

جلست عتيقة بقربها تحتضنها وهي تخفف عنها.

- **لا... سوف يعود... وإن كان ذهب إليها إنه لن يصل. لن يستطيع دخولها بسبب أمطار البارحة. سيكون الطريق مقطوعا ومهما فعل لن يتمكن من دخولها وحتما سيخاف ويعود أدراجه. لا تقلقي.**
- **هل أنت متأكدة؟؟** ترد شهلا متأملة متمسكة بكلام عمتها وكأنه طوق النجاة، كالقشة التي يتمسك بها الغريق.
- **أجل متأكدة..**

وتضمها بين ذراعيها وعيونها ترفع أملا ورجاء إلى الله أن يكون ما تقوله صحيحا.

أحيانا عندما ننتظر أمورا سيئة نتوقع حدوثها في حياتنا وتتأخر فإننا نعيشها رغم ذلك في كل مرة آلاف المرات ونشعر بإحساس الألم كما لو أنها حدثت، ونتعذب به بصفة متكررة حتى نتخدر من التفكير، وحين يكتب لمخاوفنا أن تتحقق فإننا لا نعرف كيف نتصرف. فمخاوفنا وهواجسنا لا ترينا الحلول وإنما تتوقف عند الحادثة وتصر على إعادتها كل مرة وتمنعنا من نسيانها مهما حاولنا الهروب، نعود ونراها أمامنا تتجسد وساوس تدمر سعادتنا وراحتنا.

ليس بالأمر السهل وبكل تأكيد نحن لا نترك مجالا للأمور الجيدة كي تحدث.

فكرت شهلا طويلا في ما جرى اليوم من أحداث، وعند حلول الظلام تيبست وخمدت أفكارها. قد حدث ما تخاف منه انتهى، لم يعد هنالك ما تتوقع حدوثه أسوأ من الذي حدث عاشت تنتظر هذه اللحظة والآن ماذا بعد...!

قررت أن تبدأ من جديد وألّا تبالي بما قد يحدث، استحمت غيرت ملابسها ونامت بهدوء. إنها لم تتنظر عودته هذه المرة ((هل تراها مصدومة؟، هل يمكن أن تكون تمر بحالة نفسية كالاكتئاب مثلا، بالنسبة لها لم يعد الأمر يختلف كثيرا.)).

في صباح اليوم الموالي استيقظت وهي تحاول أن تتناسى ما جرى تماما، وجدت عتيقة كعادتها وفنجان القهوة في المطبخ. شربت فنجان الحليب كما

تحبه دائما بقليل من القهوة ثم قالت كأن شيئا لم يكن بابتسامة خفيفة على شفتيها.

- **لم أخبرك ماذا قالت لي ياقوت البارحة.**

- **ماذا قالت؟ خير...**

- **كل خير.. ربما قد نغير من مستوى الناس الذين نعمل معهم ويتغير مع ذلك حالنا فنرتقي ونتوسع في نشاطنا.**

- **لم أفهمك... ما بال مستوانا وحالنا؟.**

- **عمتي، أخبرتني الياقوت أن هناك امرأة غنية ستزوج ابنتها وتحتاج خياطة ماهرة تقوم على تجهيزها وستدفع لنا جيدا، فما رأيك؟**

- **جيد.. لا بأس، نحن نبحث عن الرزق الحلال، وأين تسكن؟**

- **إنها صديقة عمتها في الحي الغربي، وقد اقترحنا أن أذهب إليها وأعرض خدماتنا فما قولك؟**

- **لما تذهبين إليها أنت، أذهب أنا كما تعودت، فأنا أجيد التفاوض معهن كما أن الحي الغربي واسع جدا وبه الكثير من المزارع والتنقل فيه يكون صعبا.**

- **أريد أن أجرب حظي هذه المرة وأذهب بنفسي، كما أن العروس قد تفضل الحديث معي، لأني من نفس جيلها تقريبا، وأعرف تماما ما قد تريده، كما أن هذا الصنف من الناس أنا من تجيد التعامل معهن،**

تعرفين أني كنت أذهب إلى بيت خالتي كثيرا وألتقي ببعض جاراتها اللاتي لا تحبينهن وتقولين أنهن لسن من نفس مستوانا..

- تكثرين الإلحاح هذه المرة، على كل لا مانع لدي، كما إني لم أعد أستطيع السير لمسافات طويلة. جدي لك رفيقة أولا.

- أريد الذهاب يوم السبت إذا لم تمانعي.

- لم السبت بالذات؟.

- نعم اتفقت مع الياقوت أن أكلم السيدة من هاتف بيت عمتها ونتفق على يوم الزيارة.

ثم تردف وفي نبرة صوتها إلحاح شديد كي تقنع عمتها أكثر بالموضوع.

- لا أريد تفويت الفرصة، كما أني متحمسة أرجوك..

- حسنا، مع أن حماستك هذه تقلقني ولم أعهدها فيك، اذهبي ربما يتغير حالك إلى الأفضل.. ربي يفتح عليك يا بنتي.

- قبل أن أنسى... سأمر على مركز الدفع من أجل تسديد الفاتورة.

كان هذا اليوم يوما فاصلا في حياة سعيدة فهي لم تخرج عن روتين حياتها ولم تغير حرفا فيه منذ وقت طويل جدا، والآن ترغب بركوب الأمواج بعدما تعودت على اليابسة والطريق المنبسط، هل تعرف السباحة هذه الفتاة؟؟؟

****

نعود إلى عمار والشيطان الذي كان يقوده وكأنه يضع له لجاما يجره به ولا يستطيع الحركة، الفتى المراهق الطائش لم يعرف ما الذي يفعله مع هذا الرجل..

بعدما وافق الرجل على اصطحاب عمار إلى تلك القرية القديمة لم يكن يثق عمار به كثيرا، رغم ذلك، فقرر أن يزور العجوز الذي تعود على تمريضه، وحاول معرفة الطريق الصحيح إلى القرية حتى يكون متأكدا، وبقي الرجل ينتظره في الخارج ولم يدخل وبعدما خرج عمار من ذلك البيت قرر أن يذهب معه بملء إرادته وأن يستعيد تاريخه المفقود.. المدفون.. أيا يكن على الوزن نفسه....

كان الرجل يسير صامتا معظم ذلك الوقت وأحيانا كان يسأله عمار عن الطريق بالضبط ويستفسر عن أسهل الطرق وأقربها، توقفا مرة، تزودا بالماء والأكل وواصلا السير حتى وصلا مخارج المدينة، وجدا بيتا تحيطه مزرعة وتكاد تغطي على معظم معالمه أشجار عالية وكثيفة لم يبرز منها إلا سقف البيت المتهالك، وقد تقشر خشب النوافذ واهترأت معظم ألواحه على جوانب الأرض. قرر أن يدخلا ويقضيا الليل هناك. توجس عمار منه قليلا فسأله: بينما يسير متأخرا عنه بخطوات منتظرا خطواته محددا وجهته.

- **هل البيت لك؟**
- **تقريبا هو لي، تعال ولا تخف.**
- **كيف تقريبا؟ أظنني سمعت صوتا بالبيت هل لك عائلة ينتظرونك؟**

يسير عمار بخطوات متقدمة متأخرة في نفس الوقت ومترددة ينظر لخطواته ويحترس من الرجل بو خناق الذي سرعان ما التفت إليه ليشعره بالأمان قائلا:

لا يمكن! البيت فارغ، هو لجدتي، ولا يسكنه أحد، أنا صاحبه ولم أزره منذ زمن طويل، سنقضي الليل هنا وفي الصباح نواصل السير ولن يتطلب الوقت سوى أربع ساعات، أي عند منتصف نهار الغد نصل إلى القرية وستجد ضالتك هناك بكل تأكيد..

في صباح اليوم الموالي استيقظ عمار وعيناه متورمتان من قلة النوم، لم يجد بو خناق في مكانه. نهض مسرعا، خرج من باب الغرفة إلى الفناء ثم لباقي الغرف لا شيء، ((أتراه تركني هنا غدر بي هذا الرجل أم ماذا؟ يا ربي ما العمل؟))

لكن سرعان ما همدت ثورته حين رأى بو خناق داخل تلك 'الجنينة'، كان يسقي نباتاته هناك. لم يكن في أي مكان آخر. لم يغادر البيت، نظر إلى عمار كأنه يوحي له أنه كان يسمع ما كان يدور بداخله منذ قليل.

- **عمار.. صباح الخير، علينا مواصلة السير. لقد حضرت القهوة.**

- **صباح الخير. هل تجيد صنعها؟**، يجلس عمار ويتناول البراد، يسكب القليل منها، يحتسيها، بينما يرد عله بوخناق وتعتريه ضحكة عميقة متمكنة من قلبه كله:

- **ماذا تقول يا فتى..! عشت حياتي تقريبا كلها وحدي. هناك أمور كثيرة أجيدها في الحياة، لا تعلمها ستكتشفها في وقتها ولا تستغرب..**

ينظر عمار من حوله تلك 'الجنينة '، بها نباتات كثيرة مغروسة بإتقان ونامية بشكل جميل ومرتب، كل ما فيها يدل على أن هناك من يعتني بها يوميا دون انقطاع، وهذا الرجل قال أنه لم يأت إلى البيت منذ وقت طويل

وأنه لا أحد غيره يأتي إلى هنا ((ما الذي يحصل هل ورطت نفسي في شيء ما؟))

****

بعد مرور يومين وبالتحديد في صبيحة يوم السبت استعدت شهلا وبحماس كبير ذهبت إلى بيت الياقوت وخرجت معها للذهاب لبيت عمتها كما اتفقتا. كان الجو مشمسا جدا وحارا. دخلت شهلا عيدة والأمل يعتريها والسعادة تغمرها. دخلت وهي تعلم أنها دخلت مدخلا جديدا مختلفا ولكنها كانت تصر ولا تبالي بما قد يحدث.لم تعد تخطط أو تحسب حسابا لأي شيء.

تعرفت على منال، بنت متحمسة وراغبة في الحياة تماما مثل الياقوت. لديها الكثير من الأغراض التي لم ترها شهلا في حياتها. كانت تراها في التلفاز فقط. قد حان الوقت المنشود.

تتناول الياقوت الهاتف وتقول:

- **خذي شهلا الهاتف. هذا هو الرقم. اطلبيه.**
- **أولا، ماذا علي أن أقول؟ دعيني أفكر قليلا.**
- **اتصلي فقط**

ثم تقول منال:

- **دعي الأمر لي، أنا أكلمها أولا، ثم أمررها لك... موافقة.**
- **بالتأكيد، افعلي.**

كانت شهلا مستعدة وخائفة قليلا صوتها الداخلي مايزال حاضرا يهمس لها ((ماذا تفعلين؟ أنت تفعلين أمرا فيه خطأ كبير...)) لكنها لا تبالي به.

- **اجلسي فقط، وسترين..**
- **أهلا خالة زبيدة، أنا منال كيف حالك؟**

إلى هنا لم تستطع شهلا أن تتحمل أكثر، خرجت مسرعة من الغرفة، نادتها الياقوت لكنها ترددت، لقد جبنت كعادتها أنه ليس بالأمر الخطير لكن لا أخفيكم سرا شهلا جبانة، بقيت جالسة بغرفة الجلوس مع عمة الياقوت، شربت كوب العصير وبقيت تنتظر حتى نزلت الياقوت ومنال وهما تتشاوران.

- **الياقوت، لماذا لم تبقي لتكلميها بنفسك؟**
- **خفت وارتبكت. أنا لا أجيد التعبير.**
- **"تهناي"... لن تضطري لتكلميها، قالت أنها ستحضر في المساء إلى هنا، يمكنك أن تتفقي معها جيدا.**
- **جيد...**

- خبر أثلج صدرها كثيرا وأنزل السكينة على قلبها ((لكن لماذا تصرفت هكذا؟ كم أنا سخيفة، سأفضح أمري إن كررتها. سيقولون عني مجنونة بالتأكيد)). كانت شهلا تخفي أمرا ما بقلبها. هي لم تتعود على إخفاء مشاعرها خصوصا ما تعلق بشيء يقلقها، لكنها هذه المرة تصارع من أجل الكتمان وبأقصى ما تستطيع.... ترى، هل هو أمر تخجل منه؟ أو أنه أمر تخاف منه؟؟

اضطرت شهلا للبقاء في بيت منال تنتظر قدوم تلك السيدة وهي على أحر من الجمر، لكنها كانت مسرورة، لا أحد ينكر ذلك.

وعند حلول المساء وبعد صلاة العصر بقليل دخلت البيت امرأة بهندام أنيق في حدود الخمسين عاما تقريبا. مهذبة وترتدي ثيابا غالية، قصيرة القامة، وممتلئة الجسم، أخذت تسلم على أهل البيت. جاءت شهلا لتسلم عليها لكنها فجأة وقفت تنظر إليها ولم تصدق ما تراه، ثم انتابها شعور غريب بدأ يسري كالسم في داخلها وامتزج ما بين الرهبة والاستغراب وقالت في نفسها بعدما اتخذت لنفسها مجلسا بعيدا عنها وكانت تتلو في سرها ((نعم كما توقعت، إنها تشبهه كثيرا، وتسارعت نبضات قلبها وارتعدت... نعم لقد كنت على حق...)).

لكن ما لم تنتبه له شهلا أن تلك المرأة كانت تبادلها الشعور والإحساس نفسه. بقيت تنظر إلى شهلا كذلك، وشهلا عيناها في الأرض وعنقها منحنٍ وشاردة الذهن ((تراهما يعرفان بعضهما البعض؟)). بقيت شهلا ساكنة مبحرة في سيل أفكارها وتلك المرأة تحدق إليها.

((مؤكد رأيتها في مكان ما، حتى أني أشعر أنها قريبة مني جدا ، ترى من هي؟؟)). المرأة تكلم نفسها بينما الكل جالس يتكلم ويتبادل، والسؤال عن الأحوال والترحيب يخاطبونها ولا تبالي... بقيت لبرهة ثم قالت مخاطبة شهلا بالتحديد:

- **أظنني رأيتك في مكان ما، ولا أذكر... يا فتاة... من أنت؟**

أيقظها فجأة صوتها: ((لن أبالغ وأقول أنه يشبه صوته، كذلك ليس باليد حيلة، ليت شيئا توقعته يوما ولم يحدث)).

- أنا... صديقة الياقوت، جئت بخصوص الخياطة لعرس ابنك.. أعني ابنتك..

- أجل، أعرف... لقد ذكروا لي ذلك، لكني أقصد من أي عائلة أنت؟؟؟

((هل أجيب أم أصمت؟، ماذا أقول بالتحديد؟ عن أي حقبة زمنية سأحدثها؟)). تنطق الياقوت محاولة تغيير الاتجاه لما رأته من ارتباك باد على وجه شهلا.

- إنها جارتي ونحن قريبتان أيضا. خالتها زوجة أبي. تربينا مع بعض منذ الطفولة.

تدخل عمة الياقوت بصينية القهوة والكل ينتقل للحديث عن تحضيرات الزواج والغلاء هذه الأيام..

- حسنا شهلا انتبهي لي جيدا، أريد أن أخيط لابنتي الوحيدة، فساتين راقية وجميلة، لم يلبس مثلها قد، هل تستطعين ذلك؟

- بكل تأكيد، يمكنني أن أفصل لك ما تشائين حسب رغبتك.

تضحك وتقول مازحة:

- لا!! لست أنا العروس. ابنتي من ستخبرك بما تريد أن تلبس، رغم أنها خجولة، لكن تحدثي معها وافهمي منها ما تريد، ستذهبين معي إلى البيت تقابلينها وتتكلمان. لديك ستة أشهر في يدك ويحين موعد العرس،

قد كنت أفكر في الذهاب إلى العاصمة لاقتناء الملابس من هناك، لكن إن كنت تجيدين عملك فلا بأس، فإني أريد عملا متقنا.

- **حسنا، لا تقلقي. سأفعل كما تطلبين بالضبط** ((هنا تحمست شهلا، فموضوع الخياطة كلام تجيده وبقوة..))

- **غدا نلتقي عند محل الخضروات الكبير وسط البلدة ومن هناك نذهب للبيت، فلا تتأخري. أنتظرك التاسعة صباحا.**

كان الاتفاق سهلا.. لكنه كان يجرها إلى مكان ما من العالم تجهله... بعيدا عن أخيها وعمتها. بعيدا عن هذه المدينة وما تحمله من ذكريات... نحو باب آخر كانت قد أقفلته منذ زمن. تركته وراءها منذ غادرة تلك القرية المشؤومة... الآن ما العمل؟

عادت شهلا إلى البيت وليس في نيتها أن تخبر عمتها عن السيدة زبيدة. فحسب ما كانت تظن عمتها لن توافق بمجرد أن تعرف من تكون السيدة زبيدة هذه.. نعم لن أخبر أحدا....

****

عادت شهلا إلى البيت وكلها مشاعر وتفاؤل وأمل وإحساس يفوق قدراتها على التحمل. وكانت تحاول قدر الإمكان إخفاءه، وفي صبيحة الغد في موعدها، كانت واقفة تنتظر السيدة زبيدة على أحر من الجمر....

انتظرتها ببساطة وطمأنينة وذهبت معها إلى بيتها بكل ثقة وأمان كأنها في أحضان شخص تعرفه جيدا وتحبه، لم يمر وقت طويل في الحافلة حتى وصلا إلى بيتها أو بالأحرى تلك المزرعة الواسعة الرائعة وكان في وسطها منزل

كبير معمر بإتقان يفوق الخيال، كان المنزل فخما يدل عل ثراء هذه السيدة، دخلت إلى البيت وجلست باستحياء على الأريكة وكانت عينها تجول وتصول بفضول كبير في كل أرجاء ذلك المنزل وانتابها شعور بالسعادة لا يوصف، فأخذت تعبث بتلك الأغراض المرتبة هناك على الطاولة والمزينة واللامعة، حتى دخلت عليها فتاة كانت تبدو بمثل سنها تقريبا أو أصغر منها بقليل، سلمت على شهلا والابتسامة والبشاشة تشعان من وجهها، كانت فتاة طيبة، للوهلة الأولى عرفت شهلا أن هذه الفتاة لا تخفي في جوفها أي مشاعر للشر، بمجرد النظر في عينها تدرك طيبتها اللامتناهية، جلست بقرب شهلا وهي تبتسم لها. تبادلتا الحديث قليلا وبعد مدة أصرت السيدة زبيدة على تركهما لوحدهما، وخرجت لقضاء حوائجها فقالت شهلا للفتاة:

- **تبدو والدتك سعيدة جدا بزواجك. هنيئا لك بها.**
- **نعم إنها أم مثالية، لم أكن لأحلم بأفضل من ذلك.**

- أدركت شهلا من خلال خبرتها وفراستها في الأشخاص ومشاعرهم الدفينة وشكوكها التي لا حصر لها أن هذه الفتاة خلف كل هذه السعادة تخفي شيئا. فأرادت أن تقترب منها أكثر لتشعرها بالأمان، لكن الفتاة كانت تتهرب، وبعد أخذ ورد وبعد عدة أيام كانت تزور شهلا البيت لتفصيل الملابس واختيار الألوان. كانت تجلس مع **وداد** تتحدثان وكانتا منسجمتين جدا.

عرفت أن هذه الفتاة ليست ابنة السيدة زبيدة، وأنها تقوم بتربيتها واسمها ليس وداد وإنما فاطمة وكانت لها قصة طويلة وحزينة لكنها كانت مستعدة

لأن تحكيها بعدما رأته من شهلا من قلب كبير وشخصية قوية تقول... وداد أو فاطمة تسرد تفاصيل قصتها:

- كانت حياتي صعبة جدا. توفيت والدتي عند ولادتي رحمها الله، لم أكن بقدر من الحظ لأعرف ملامحها فأخزنها في ذاكرتي حين أشتاق لها، لا أملك لها إلا صورة قديمة جدا لها كانت تحتفظ بها في البيت، تزوج أبي بعد ذلك مباشرة، يقولون أن زوجة عمي ربتني في البداية لكنها تركتني أيضا، فقامت جدتي رحمها الله بالاعتناء بي. أدخلتني المدرسة الابتدائية. تعلمت وكنت سعيدة ولم أشعر بالفرق لكن عند وفاتها، كانت نهاية ذلك الحلم الجميل، انقلبت حياتي كليا، ومنذ ذلك اليوم شعرت بالوحدة القاتلة وأدركت تماما أني فعلا وحيدة، وغلبت على أمري، فقامت زوجة أبي بحرماني من الدراسة. أقنعت أبي... لست أدري كيف؟ المهم أنه رفض تسجيلي ذلك العام، ورضيت على مضض وبقيت أعامل في ذلك البيت كالخادمة بلا مشاعر، بلا حقوق، لم أكن أعامل مثل بقية إخوتي، في يوم من الأيام هجمت علي زوجة أبي لسبب لم أعد أذكره، وكانت تضربني بشدة فهربت للشارع. لم أعرف إلى أين أتجه فدخلت بيت الجيران واختبأت هناك، كانت جارتنا امرأة طيبة تفهمتني وتركتني يومها عندها، حتى تهدأ أحوال زوجة أبي، لكني رفضت العودة بشدة إلى البيت، وهناك التقيت السيدة زبيدة وقتها كانت قد تعرضت لحادث مؤلم وفقدت زوجها وابنتها التي كانت في نفس سني، أحبتني وتمسكت بي جدا، ولأنها في تلك الأيام كانت تحت تأثير الصدمة أصرت

على مناداتي بوداد وأنا لم أكترث فقد أحببتها أيضا، قررت أن أبقى معها وحين كانت عائدة إلى بيتها ذهبت معها وتركت بيتي. كل ما أعرفه أنها منذ ذلك اليوم أصبحت أمي ولا أعرف سواها. هي لم يكن لها غيري وأنا لم يكن لي غيرها. فقد شاء القدر أن نكمل بعضنا.

تتنهد بحرقة ثم تقول لشهلا وكلها حسرة:

- أحيانا يا شهلا عندما نتغير كثيرا من الداخل لا نعرف نقطة الرجوع إلى ما كنا عليه سابقا...

- كم كان عمرك حينها؟

- كنت في الثانية أو الثالثة عشرة. كنت بصدد الانتقال لأدرس في المتوسطة لكني لم أفعل حينها، وحين أتيت إلى هنا فعلت أمي كل ما بوسعها لتعيدني إلى المدرسة، ولأني لم أكن ناجحة جدا تركت المدرسة بعد سنتين برغبتي وبقيت في البيت.

- ألا تشتاقين لأبيك؟

- لم يكن يحبني أصلا.. فهو لم يسأل عني ولم يكلف نفسه عناء البحث عني منذ رحلت.

ثم تواصل كلامها وقد برق الأمل بعينيها خافتا كوشاح غطت به على نفسها الماضية لتصبح أخرى.

- اسمعي.. أنا لا أريد الكلام في هذا الموضوع. لقد اكتفيت... أنا شخص آخر الآن، أنا وداد ولن يتغير شيء.

تبتسم ابتسامة دافئة وبكل صدق نظرت في عيني شهلا التي كانت مبحرة داخل عيني وداد وهي تسرد حكايتها أمامها وقالت لها:

- كنت بحاجة للكلام فقط لأخفف عن نفسي. المهم سأتزوج وأكمل حياتي التي بدأتها، وكل هذه الحقيقة لم تعد تعنيني. سأتركها هنا خلفي، سأطلب منك طلبا مهما بالنسبة لي، لا تخبري أحدا بهذا، ولا تذكريه أمام أمي، إني أراك تحفظين السروتقدرين الأمانة.

- لا عليك، أنا لا يهمني شيء في الموضوع، ((تبادلها الابتسامة نفسها بصدقها...)) **المهم أنت وداد "ربي يسجيلك".**

- تكلمت عن نفسي كثيرا ولم تخبريني أنت عن حياتك، كلمتني عن عمتك، عن أخيك الذي خرج ولم يعد، وأهملت نفسك...

- صدقيني لن ترغبي في معرفتي... حكايتي التي تدور داخل نفسي، أو كيف هي حقيقتي داخل هذا الجسد الفاني، لن ترغبي بالتعرف علي.. ثقي بي يا وداد، لكن ربما يوما ما.. أو إن بقينا نتقابل بعد زواجك تتعرفين علي أكثر، سنتركها للزمن...

أحيانا ليس بالضرورة أن نعرف تفاصيل كثيرة الدقة حصلت في حياتنا بعيدة عن مسامعنا، فقد تشوه الصورة التي رسمناها ورضينا بها عن أنفسنا، فقط علينا أن نكتفي بما نراه ونسمعه بأنفسنا، حتى تكتمل سعادتنا وإن كانت تلك الصورة الحقيقية بشعة للغاية.

كذلك فاطمة تلك، لم يهمها ماذا حصل بعد رحيلها عن بيتها، لم يكن يهمها أي تغيير حصل منذ لجوئها إلى هذه الحياة، فقط ما تعرفه وما كان فعلا يهمها أنها شهلا وراضية بما هي عليه الآن. كانت ترى أنها تستحق هذه الحياة تنعم بشخصية وداد. حين عرفت شهلا تفاصيل قصة فاطمة شعرت بشيء ما يتمسك بها بقوة، ويلح عليها وكلما تهربت منه يجرها مجددا للتفكير، فظلت تفكر فيها كل تلك الليلة، وابتسامة في داخلها وحمد لله تعالى أنه لا ينسى أحدا، كانت مسرورة من أجلها، لكن سؤالا ظلّ في رأسها، ترى هل بهذه البساطة أصبحت فردا من هذه العائلة دونما ضرر؟ كيف صار حال أبيها بعدما رحلت؟، ماذا فعلوا للبحث عنها؟ ليس في الأمر أنانية أو كراهية أو حتى شر، فهي لم تكن سعيدة حينها، تحدث شهلا نفسها، ومن كثرة تفكيرها في الموضوع رأت أنها قد تسأل عمتها عنها وتعطيها رأيا في ذلك.

****

قبل يومين..

الحديقة كانت جميلة جدا. بقي عمار ينظر إليه ويراقبها بحذر شديد والرجل بوخناق كان يصر عليه حتى يسرع في الخروج إلى القرية. كان الطريق طويلا وشاقا... سارا طويلا حتى لاحت تلك القرية من بعيد.

– لقد انحسر الماء الآن. نستطيع الدخول إليها بسهولة لكن انتبه سوف نصعد إليها بصعوبة، فكما ترى تقع القرية في مرتفع خطير. كن حذرا.

هناك شحب وجه عمار وتلون جسده كأن الدم في عروقه قد تغير، وارتعب وجلس يرتاح ويلتقط أنفاسه من طول ذلك السير.

لكن ذلك العجوز لم يتعب، لم يتنهد، حتى أنه لم يشتك مطلقا، ((ما هذا الرجل؟ ألا يتعب؟ ما باله؟ ما هذه القوة الرهيبة؟))

- **دعني أرتاح قليلا.. يا رجل. انقطع نفسي.**

- **انهض. لا بد أن نتحرك للتو، لا يجوز أن نطيل البقاء هنا. بدأت السماء تغيم. إن تساقط المطر مجددا سنغرق هنا.**

ثم أمسك بيده وجره نحو ذلك المرتفع بقوة. حاول عمار الإفلات منه لكن دون جدوى.

- **يا رجل..!! دع يدي لست طفلا، أستطيع السير معتمدا على نفسي.**

لكن الرجل بو خناق ضحك ضحكة مدوية وقال مكشرا عن أنيابه كأنه تحول وحشا بعد أن كان إنسانا مسالما مع بعض الغموض:

- **لم أصل إلى هنا لأرتاح. الآن سرواصمت...**

أدرك عمار أنه قد تورط في شيء كبير جدا أكبر منه بكثير..

لكنه وبدون أن يفكر طويلا قال له:

- **لا تغضب يا رفيق الطريق، الآن لا داعي للعجلة. ها نحن قد وصلنا إلى القرية أصبحنا على مشارفها. لا يحول بيننا وبينها شيء، يمكننا أن نرتاح ويمكنني أن أتخذ لنفسي الطريق الذي يريحني عدها يا صاحبي.**

التفت إليه لرجل وفي عينيه الشرارة والنار وكأنه أدرك أنه يريد أن يلاعبه ويفسد عليه ما ينوي عمله.

- **أتعتقد أنك ستخدعني بكلامك؟! ابق حيث أنت. مكانك لا تتحرك.**

وأخرج من جيبه حبلا وبدأ بتحضيره ينوي به ربط يدي عمار، لكنه سرعان ما التفت حوله. لم يجده. كان عمار قد غادر من جانبه واختفى بين تلك الأحراش والأشجار القريبة. انتفض الرجل من شدة الغيض، تخبط يمنة ويسارا، رمى الحبل من يده وسارع يلتفت لكن دون جدوى، عمار أدرك الخطر وهرب.

- **تراه هرب الخبيث. خدعني.** ((لن ينجو مني))

وصار يصرخ بأعلى صوته:

- **تعتقد أنك أذكى مني. لا.. لقد أوقعت نفسك في ورطة. أين ستهرب مني. وجدتك بعد كل هذه السنوات، من بعيد أتيت إليك وأحضرتك هنا... ماذا تظن؟**

وهرع يبحث عنه في كل مكان وقد برز رأسه الأصلع. وأصبح الرجل فجأة يهلوس كفيض مكتوم، وبدأ ينضح بما في جعبته من طلاسم غير مفهومة، تحول فجأة للشيطان الذي يأويه منذ مدة وغلبت طينة غير بشرية على ملامحه زادته رعبا ووحشية. لم يكن بشرا من البداية؟؟

بدأ الظلام يحل وأصبحت القرية أكثر وحشة... وبازدياد المطر غزارة..

- **أين اختبأ؟ يا ربي نجني منه.. لقد فوضت أمري إليك...**

جرى طويلا حتى وصل إلى منزل بطرف القرية، مهدم وغير مأهول، احتمى داخل جدار به وسكن لبرهة.. حتى مر عليه بعض الأطفال وهم يتلاعبون بالمطر. قال أحدهم ضاحكا:

- **منزل الساحرة. ويلكم لا تقتربوا منه....**

فانتفض من مكانه عمار مرعوبا. فزع الأولاد منه وهربوا مسرعين، وكفتوا نحو القرية لكنه لحقهم. كان يريد سؤالهم ولكن من شدة خوفهم لم يلتفتوا إليه... بقي واقفا حيرانا، ثم سارع وراءهم يحث الخطى نحو القرية وذاك الرجل واقف بعيدا عنه يراقبه.. يكلم نفسه.

- **((هذا أنت. قلت لك لن تبتعد يا فتى. مصيرك بين يدي... تريد أن تلعب... إذن دعنا نلهوا قليلا..))..**

أيها الزمن الغادر، خدعتنا، جردتنا من كل الأماني والأحلام، كسرت قلوبنا بعد أن أقنعتنا بالحب، بعدما وعدتنا السلام.... أين الحب؟ أين السلام؟ خلف الجدران، خلف الأبواب المقفلة، تحت كل الدموع دعاء مدفون بقاع الروح ينتظر الجواب.. لا تخذلنا مجددا، احمِنا من كرب وهول.. قد يأتيان من حيث أدرنا ظهورنا لمن وثقنا بهم.. يا زمن دعنا نعِش..

بقي عمار يتبع الأولاد والرجفة بقلبه وعقله، والخوف يحيطه، هو لا يعرف أحدا لكنه مع ذلك أدرك أن قدميه تجرانه نحو مكان ما.. إنه الحنين. وصل إلى أحد المحلات وبقي واقفا ينظر كأنه يريد الدخول حتى انتبه إليه أحد الشيوخ هناك.

- **يا ولدي ما بك؟ هل تبحث عن أحد؟ أراك تلتفت يمينا ويسارا.**
- **أنا لست من القرية. أبحث عن منزل الحاج إبراهيم..**

كان هذا ما جاء على لسان عمار فجأة، لم يعرف أي اسم آخر يقوله غير أبيه. استغرب العجوز سؤاله. قام من مكانه متعثرا وأخذه إلى جانب الجدار خلف عمود الكهرباء الخشبي القديم. حيث ما زالت أنوار الطريق مذبذبة.

- **أتقصد الحاج إبراهيم شيخ القرية قديما؟ أمتأكد منه؟؟؟**
- **نعم**! ماذا تعرف عنه؟؟
- **توفي منذ زمن طويل، ولم يبق أحد من عائلته هنا... ولا تسأل. لا تتعب نفسك**.

ثم يردف قائلا بنبرة واثقة:

- **لا أحد سوف يجيبك عن المكان الذي ارتحلوا إليه، فلا أحد يعرف.**
- **حسنا شكرا سيدي.** استسلم لكلماته لأنه مدرك تلك النتيجة الحتمية.
- **اسمع بني يبدو أنك مسافر ومتعب ومنهك جدا. تعال تبيت عندي في بيتي، وغدا تعود لحاجتك. ما رأيك؟**

لم يمانع عمار وذهب معه.

كانت الحقيقة التي ظل يبحث عنها على مقربة منه.. ((بقي الشيء القليل، لكن الأهم ألّا يعثر علي ذاك المجنون..))

بات تلك الليلة عند الرجل المسن كما يكون الضيف عند الكريم الجواد.

وفي الصباح:

- **بني أدلك على البيت الذي كان يقطنه.**

- **دلني على بيت أحد من إخوته.**

- **إخوته!! ليس له أخ، ولا أخت، يا رجل...** بحسرة.. **كان وحيدا فريدا من نوعه. تعال أدلك على بيته القديم. اسأل الجيران. قد يفيدونك.**

صدم عمار من كلام الرجل المسن، إلا أنه لم يصدقه، قال أنه رجل مسن وقد يكون نسي... لا بأس.

سار معه إلى البيت القديم وقد سكنه أناس آخرون. لم يعرف من أين يبدأ سؤاله.. لكنه توكل على الله. وليس ببعيد، رأته إحدى السيدات وهو يطوف بالبيت ويراقب.. أخبرت زوجها فذهب إليه.

- **يا رجل تحتاج مساعدة.**

- **نعم أسأل عن بيت الحاج إبراهيم. علمت أنه توفي وعائلته لم تعد تسكن هنا. هل تعرف شيئا؟ أرجوك أفدني فأنا جئت من مكان بعيد.**

توسم الرجل فيه الصدق، فأجلسه على عتبة باب بيته، واسترسل يكلمه بحسرة.

- **للأسف توفي منذ زمن.. في فاجعة غريبة اختفى لزمن وقيل أكلته الذئاب ربما... لا حول ولا قوة إلا بالله، وتوفيت زوجته كذلك بالسم بعده، بعدما ولدت طفلا حسب ما يقال من نساء القرية.**

- **بالسم!! أجل هذا الكلام من المرأة التي قامت بتغسيلها بعد موتها.**

- **ما هذا الكلام؟ أمتأكد.**

- بالتأكيد... فالكلام شاع في أنحاء القرية، كان عاما أسود. صدقني لا ينسى.

- لكن كيف؟؟؟

- يقال عمة الأولاد الوحيدة التي كانت معها ليلتها الطويلة تلك.

- يقال ليس له إخوة!

- أجل هي ابنة عمه وقد تربت معه فأصبحت بمثابة الأخت.

يا رجل حكايتهم غريبة جدا...

- أرجو أن تخبرني ما تعرف، لأني قريب للعائلة من قرية أخرى وجئت لأطمئن على الأولاد. ألا تعرف أين ذهبوا؟؟

- لا أعلم. يقال أن العمة فرت من القرية وأخذت الأولاد معها. كما أنها تركت كل شيء خلفها حتى البيت والأرض.

- والآن... من يدير ذلك الرزق؟

- ما يزال كما هو مشؤوما؟ لا أحد يجرؤ على دخول البيت ولا الأرض... لكني علمت أن هناك من يسكنه.

- أجل رجل غريب جاء إلى القرية منذ زمن بعد رحيلهم وصار يتردد عليه ولا أحد كان يكلمه، لأنه حسب ما يشاع من أقارب العائلة وليس بصحة عقلية جيدة، فنحن في هذه القرية نحمي أنفسنا بأنفسنا من شدة العزلة التي نعانيها.

- لكن هل تصف لي الرجل؟

- رجل غريب... لا يكلم أحدا. يرتدي دائما لباسا شتويا ولو في الصيف ولا ينزع غطاء الرأس مطلقا، لكنه منذ مدة لم يزر القرية، يبدو أنه رحل بعيدا، أو ربما مات.

- وقف عمار والدهشة تملؤه ولسان حاله يقول:

- ويحي ما كل هذا؟....

فجأة شعر كأن القرية أصبحت كالقفص انطبقت على صدره بكل قوة واعتصرت قلبه حتى كادت تخنقه، وأحس بألم في رأسه ثم أغمي عليه...

****

مرّت أيام وشهلا في حيرة من أمرها بين أن تخبر عمتها بقصة وداد أم لا، فالأمر كان سرا ولم تكن لتخبر به أحدا.

أو هكذا عاهدت نفسها...

لا بأس، قد أنصحها بشيء ما فعمتي لها وجهة نظر مختلفة عنا دائما، ولا ضير في أخذ رأيها (خلصت بينها وبين نفسها لقرار).

اختارت فرصة مناسبة في ذلك اليوم حين كانت العمة قد أنهت ما بين يديها من عمل واستلمت عليه أجرتها، فشهلا تؤمن تماما أنه اليوم المناسب...

جلست شهلا بهدوء.

- عمتي أريد أن أقص عليك رواية غريبة حدثت مع الفتاة التي أخيط لها ثياب عرسها. والله قصة محزنة، مسكينة ما حصل لها، لكن قدرة الله شاءت أن تنصفها. أخيرا ستتزوج شابا عن قناعة وستكون سعيدة.

- ياه؟!!... ما حكايتها؟

تسأل العمة سؤالها بانشغال ومن دون أي اهتمام في ملامحها، بينما تعد أوراق النقود التي بين يديها وتركز في تقسيمها ما بين حاجات البيت المتراكمة المنتظرة من الشهر الفارط... لم تبد البداية مشجعة من العمة، لكن شهلا اقتربت منها وجلست بجانبها... و أخذت تحاول لم الأوراق النقدية من أمام عمتها في محاولة للفت انتباهها وفي نفس الوقت تبدأ في سرد قصة وداد بكل تأثر وحماسة، بينما عمتها عتيقة العجوز تركز تارة في عيني شهلا وتشرد قليلا.. ربما في ذاك المبلغ القليل، وتارة تتيه في جدران تلك الغرفة المهلكة مع تدخلها في كل مرة...

- **وكيف؟... سبحان الله.**

إلى أن سألت عتيقة شهلا، ما اسم هذه المرأة وأين كانوا يسكنون؟

هنا تذكرت شهلا أنها نسيت الأمر تماما، مؤكد تعرفها عمتي ستمنعني من الذهاب إليها. فأجبرت نفسها على الكذب وقالت:

- **لا أعرف... تصدقين ؟!! لم أسأل عن اسمها.** (بابتسامة طيفية زائفة سرعان ما زالت..)

حدقت عتيقة في حركات شهلا وارتباكها قليلا، واستغربت الموضوع وعرفت بالأمر سرا وأن شهلا تنقص حلقة من سلسلتها هذه التي سردتها..

لكنها تغاضت عن الموضوع وقالت لها:

- **لا بأس... متى الزفاف؟**

- **الخميس المقبل، بقي لدي أسبوع واحد تقريبا. أنهيت أصعب ثوب أعمل عليه. غدا آخذه إليها وأنهي ما تبقى من رتوش.**

- **ألم تدعُك للعرس؟**
- **مؤكد.... هي دعتني لكن لا أظن أني سأذهب.**
- **لماذا!! ألم تقولي أنهم أناس متواضعون جدا؟**
- **صحيح.. ربما أفكر في الموضوع لاحقا.**

ثم واصلت تحدثها بينما تغلق النافذة المقابلة للشارع وهي تتمتم. تغير الجو. يبدو أنها ستمطر.

- **بالمناسبة. أريد الذهاب في المساء إلى بيت خالتي.**

كانت شهلا بكل تأكيد قد فكرت في الموضوع منذ وقت وترغب في الذهاب بشدة، بل تتمنى، إلا أنها كانت تخشى رفض عمتها، لذا ترددت في إخبارها وأرادت أن ترى رأيها أولا.. وما كان ينقصها ثوب ترتديه يكون بمستوى حفل هؤلاء الناس، لذا فكرت في الياقوت وقررت الذهاب إليها.

في ذلك المساء وفي بيت الياقوت لم يكن الأمر مريحا بعض الشيء. كانت الياقوت متعبة جدا يومها. فمستوى السكر في دمها أصبح يتعبها أكثر من ذي قبل. وأصبحت تعاني فلم تشأ أن تتكلم. خصوصا أن والدها كان قلقا وقضى الوقت وهو يعبر عن ذلك لشهلا، كما أن خالتها بقيت تشتكي لها من زوجها والأولاد إلى غير ذلك... لم تجد الفرصة سانحة فعادت للبيت محبطة وقررت تدبر أمرها بطريقة أخرى.

في صباح اليوم الموالي، توجهت شهلا إلى بيت وداد حاملة ذلك الثوب الأخير في يدها وكلها سعادة وأمل..

عندما وصلت للبيت وجدت الباب مفتوحا، وجدت سيارة متوقفة عند الباب. لم تكن هذه السيارة مألوفة. قالت في نفسها 'لابد أن لديهم ضيوفا'. دخلت البيت بهدوء والتفتت علّها تجد أحدا. لكن الكل كان في غرفة الجلوس. كانت تسمع أصوات الضحك والحوارات التي لم تفهم منها شيئا، كأن أحدا عندهم فرحين بوجوده فقد سمعت السيدة تقول:

- **تأخرت... توقعنا قدومك البارحة. هل أنهيت عملك؟... كم دفعت ثمنا لذلك؟**

تمنت لو تدخل.. لكن كرامتها لم تسمح لها وبقيت في الخارج تنتظر. انتظرت ثم عادت وحاولت أن تسمع. فجأة سمعت ذلك الرجل يتكلم بوضوح خرق طبلة أذنها.. وتجاوز إلى دفاتر قديمة وفتحها... الصوت نفسه. مؤكد لست مخطئة. حرّك أوصالها تلقائيا فدخلت بطريقة مفاجئة الحضور..

والتفت باحثة عن صاحب الصوت. ذلك الصوت الذي يجلب السعادة من حيث لم تدرِ. كتمت رجفة قلبها التي كادت تفضح شفتيها خجلا وقالت:

- **صباح الخير. وجدت الباب مفتوحا فدخلت.. اسمحوا لي..**

التفت الجميع إليها... شهلا واقفة بحياء شديد وخوف تكاد تتكئ على دفة الباب تحمل القفة التي بها الثوب، تمد يدها لتسلمهم الثوب ببلاهة شديدة.. فتبادرها وداد:

- **مرحبا شهلا. جئت في وقتك.**

وتمسك بها لتسلم عليها وبكل برود ودهشة، شهلا لا تدرك ما الذي جعلها تكون هنا بينهم في هذه اللحظة.. وتواصل وداد بحماس:

- **انظري من هنا.. إليك مصطفى..**

والتفت الرجل إليها ونظر إليها جيدا، ولم يتكلم، هي أبقت رأسها مطأطأ، ورفعت نظرها إليه ثم....

توقف قلب شهلا.... وقالت بلا شعور:

- **نعم**... بابتسامة خفيفة خارج الإطار تماما.

وأردفت مستعجلة كأنها شعرت أنها لا يجب أن تكون هنا..

- **تفضلي الثوب، يجب أن أراه عليك لآخر مرة حتى أضع بعض اللمسات عليه حتى أكون دقيقة.. وسأذهب مباشرة**...

تقولها وكان هناك من يطاردها أو يطالبها بالرحيل، شهلا المسكينة في تلك اللحظات كانت خارج مجال التغطية تماما...

أحست السيدة زبيدة بخجلها وارتباكها فقالت لها ببساطة شديدة:

- **بالله عليك... اجلسي شهلا. لا تستعجلي. اشربي معنا القهوة ومن ثمّ اصعدي معها لتقيس الثوب. مثل هذه الأمور لا تأتي على عجل..**

انسحبت شهلا مباشرة خلف وداد وصعدت معها الغرفة بهدوء.. لم تتمالك نفسها أن تسأل بينما أخذت وداد تقيس ثوبها ورأس شهلا في أخذ ورد. أسأل الآن أم ليس بعد؟...

نطقت كالذي عاد إلى الحياة ولا يدري في أي موقف هو الآن. كل ما يريد التعبير عنه فقط أن يقول أنه حي....

- **من يكون هذا الفتى... هل هو قريبكم؟؟**

- **نعم. مصطفى..**

احمر وجهها من الخجل وواصلت، أعز من أخي هو كل أصدقائي وأحبابي... وقد كان في المدينة يصلح السيارة.

فهمت شهلا من طريقة كلامها أنه عريسها، من الجنون أنها طوال تلك الفترة لم تسأل عن خطيب وداد ولا مرّة واحدة. كما إن وداد كذلك لم تتكلم عنه. بدا الأمر غير مهم لكنه الآن حدث..

لم تعرف شهلا كيف اختصرت كل تلك الطريق لتجد نفسها أمام بيتها... كيف كان الطريق مزدحما.. أم فارغا، بمن التقت.. لقد انتابها الحزن الشديد. والألم كان شيئا تحطم بداخلها ولم يحدث ضجيجا. تكسر تاركا ألما عميق لا يحتمل. تناثر أجزاء في كل مكان مخلفا ضررا حادا بمشاعرها... إنه مصطفى!! هل انتظرت كل هذه المدة؟... حتى أراه وأعلم أنه سيتزوج... تهمس لنفسها بصوت مخنوق بحبل الوجع والمرارة رطبا بدموع لن يراها أحد غيرها. تجري على خدودها الناعمة الباردة صرخة بداخلها. ترمي بكل القيود عرض الحائط... ذلك الحائط القاسي... رد الصدى... لا تبكِ.. ذلك لن يجدي..

كل هذه المدّة.. فقط انتظر القدر حتى أحضر بنفسي هذه اللحظة.. أكون شاهدة على آخر الأحداث. حاضرة لالتقاط الصورة الأخيرة فتحفر في ذاكرتي. يا ربي سأقضي نحبي...

كنا صغيرين. كان وسيما في عيني. كنت أشعر أنه كان يحميني دائما وكأنه خلق لأجلي، أجده حولي دائما.. لم أحب اللعب إلا معه وكانت فتيات الحي تغرن مني... لقد كنت وحيدة من الداخل وكنت أراه بطلي.

لم تستطع شهلا التحمل. غلبتها دموعها وانهارت تماما عند مدخل غرفتها ومع غياب عمتها أجهشت البكاء وبالغت بالنحيب حتى بحّ صوتها.. بكت وكانت تحس مع كل دمعة تنزل من عينيها ثقلا كبيرا ينزاح عن قلبها، وكانت ترتاح أكثر...

في نفس ذلك الوقت بالحي الغربي... هناك.

استدار مصطفى نحو أخته زبيدة.

- **من تلك الفتاة التي كانت هنا منذ قليل؟**
- **إنها خياطة التقيت بها في بيت إحدى صديقاتي.. تجيد عملها تلك الفتاة كثيرا كما أنها لطيفة وخلوقة ويسعدني أن وداد أحبتها.**
- **ما اسمها؟...**
- **لم تسأل عن اسمها؟... ما بالك مصطفى!!** ممازحة أخاها.
- **لا شيء... شعرت فجأة بأني رأيتها من قبل. مجرد فضول.**
- **غريب فعلا... أنا أيضا شعرت بذلك فور أن رأيتها. لكنها غريبة عنا ولا أظنك تكون قد رأيتها من قبل. مستحيل...**

لكن مصطفى بقي مصرا وقال لها.. بينما يتمدد على الأريكة كأن الأمر مجرد تسلية لديه..

- **ساعديني ربما أتذكرها. أين كانت تسكن؟...**

- قلت لك لا أعرف... لكن لم تصر؟!!

- غريب. شعرت أني عرفتها جيدا. صورتها مألوفة لدي...

ثم يواصل لكن كانت تبدو أصغر محدثا نفسه:

- حقا... لا بأس. حين ألتقي بها المرة القادمة أسألها... أوه نسيت أن أدعوها لحفل الزفاف. أرجو أن تكون وداد قد سلّمتها بطاقة الدعوة.

كان مصطفى في تلك اللحظة يرغب بشدة أن يراها مجددا، علّه يسحبها من ذاكرته ويعرف من تكون. لكنه يعلم أن ذلك بعيد المنال واستسلم ليأخذ استراحة بعد عناء السفر..

بعد غد يحل الزفاف.. والكل يتأهب ويحضر، الكل مشغول وزبيدة كانت تصرخ هنا وهناك والقلق مسيطر عليها وهي تحاول التحكم في كل الأمور وضبطها... بدأت بعض صديقاتها القديمات بالحضور وأيضا بعض الأقارب جاؤوا من بعيد... لم يعد الوقت يسع التسليم على الجميع الكل يسارع. التبريكات والزغاريد ملأت الفضاء.

- **مبارك ما واسيتــو زبيدة وعلى ربي يكمل. ربي يبارك....**

دموع لم تجف. زغاريد علت... حزن عميق.. سعادة لا حصر لها.... صور من هنا وهناك...

هناك بالبيت الفقير قبعت شهلا وقد هدأ نحيبها قليلا وقسى قلبها بعض الشيء بعدما كان رطبا... وجف ويبس بعدما كان منذ يوم فقط أخضر يانعا... يا للمفارقة..

- **(وأنا. ما الذي يحصل لي؟... ما دخلي؟... لم أصر على تعذيب نفسي إلى هذا الحد؟ اعتدت الندب والصراخ. قد اكتفيت. سأخرج قليلا قبل أن تأتي عمتي وتراني بهذا الحال... ليس باليد حيلة... سأذهب إلى الياقوت..).**

تعاتب نفسها التعبة علّها تستعيد ما تبقى منها.. من كبرياء وكرامة.

سار اليوم إلى هذا الحد على أسوإ ما يرام. ذهبت شهلا إلى الياقوت كعادتها لتفتح قلبها لها..

أخبرت الياقوت بما جرى معها وأثقل قلبها وعن الإهانة الكبيرة التي شعرت بها هناك.. وعن قلبها الضعيف الذي لم يتحمل كل ذلك، والتي لم تكن سوى ثواني معدودة قلبت كيانها كليا. لم تعد تريد إخفاء شيء بعد اليوم خصوصا أن الياقوت تفهمها جيدا ويكفي أنها مستمعة ممتازة كما أنها تستطيع بقدرة قادر قلب مزاجها إلى الأفضل دائما.

وبعد كل ذلك الحديث الطويل والسرد المتناثر وكل ذلك الزخم من المشاعر المبعثرة.. وشهلا تحكي والياقوت تستمع لها... وبين الحين والحين كانت تبتعد عنها قليلا بنظرها نحو نافذة الغرفة المطلة على الشارع المزدحم.. في مثل هذا الوقت من النهار... وبعد أن أنهكها الحديث... واختنق صوتها من شدة الحسرة والألم...

- **يوم سعدي الياقوت... إنك شفيتِ**
- **لاباس الحمد لله. أنا بخير. تعرفين أنني مثل القط بسبع أرواح.**
- **لا تحاولي تغيير الحديث أعرفك**... وتردف معاتبة:

- لكنك تبقين ضعيفة.. لماذا هربت؟ كان ينبغي أن تكلميه.. على الأقل عرفي عن نفسك. قولي "أنا شهلا. كنا نلعب سويا حين كنا صغارا بالقرية"... ذلك يكف وسوف يكون ذلك مجالا للحديث وبلا شك سيذكرك.

- لا. لن يذكرني يا ياقوت... وتواصل حديثها بإحباط مثل عجوز لم يبق لها من الحياة سوى انتظار الموت.

- لا أحد أصبح يذكرني ولا أدري ماذا حكى عنا أهل القرية منذ خروجنا وأي صورة قد طبعت لديه عني إن كان أصلا يحفظ ملامحي.

- شهلا والتشاؤم هذا توأمان. باستهزاء... **يا أختي كنت ستجربين ولن تخسري شيئا.**

ثم وقفت الياقوت وأخذت تمثل دور شهلا في مشهد مضحك.

- أهلا.. أنا أعرفك جيدا. هذا أنت مصطفى. أنا شهلا. تذكرني...كنا نلعب معا.

وكانت تواصل ضاحكة وشهلا تراقبها بخجل تارة وابتسامة تارة أخرى.. ثم قالت:

- أرأيت؟ لا يكلف شيئا وسيقول لك: آه صحيح شهلا أتذكرك... هكذا ببساطة...

ثم ترمي بنفسها إلى جانبها حتى تكاد تجلس على ركبتيها.

- وأنت بهذه الحالة لم تكوني لتعودي تحملين هذا الهم الذي لا داعي له. مجرد كلامك معه تعبير عما تريدين قوله. كان يجب أن تقوليه

هناك.. ليس الأمر خطيرا لا يدور هذا العالم حولك. لن يختل التوازن الكوني إن وجدت أنك مخطئة.

تنهدت شهلا ضاحكة.

- معك حق... لا أحد يبالي للنتائج التي نصل إليها ولا الطريق الذي نسلكه أبدا... كان يجب أن أتكلم بعفوية. لا يستحق الأمر تفكيرا طويلا.... لقد بدوت بلهاء حقا.

- والآن... ما قلت...

- في ماذا؟؟

- ستذهبين للعرس.

- لا.. لن أذهب

- سوف أقتلك بالتأكيد يوما ما يا شهلا، سأصاب منك بالجنون.. ستذهبين لأن منال دعتني وسمح لي أبي بالذهاب بشرط أن تذهبي معي.

- لكن...

- نقطة انتهى. لا مجال للتفكير. ماذا قلنا؟.. ولا تخافي لن يحصل لك شيء. سنكون ثلاثتنا معا وسنتسلى كما أن وداد ستسعد مؤكد بقدمك وعليك إظهار بعض الاحترام لهما. وافرحي لفرحهم لا تكوني منطوية... الناس تبرر ما تفعلينه بالتكبر والغرور وليس الخجل صدقيني. فاظهري العكس وكوني سيدة تعرف الواجب يا شهلا..

- تضحك شهلا ضحكة من قلبها وتغير لون وجهها للوردي فجأة معلنة عن قبولها وانصياعها للياقوت.

عجيبة هاته الفتاة. كيف أنها تنتشلها من القاع دائما قبل أن تغرق... وبدأت الفتاتان تحضران نفسيهما لارتداء أجمل الحلل، وشهلا في تلك الأثناء مشرقة كشمس أتت بعد العاصفة ودعاء بقلبها من يدري غدا في علم الغيب. يا الله إليك عني هذا الحمل خفف عني ما أثقلني.

بالنظر إلى ما نريده دوما أن يحصل وهو لا يحصل وما نريد أن لا يحصل يحصل... إنهما الشيء نفسه... أريد أن أكون سعيدا وأخاف أن لا أجد السعادة. وجهان لعملة واحدة نرميها لا بيقين بل بخوف، فرعشة عدم اليقين تقلب العملة على الوجه الذي لا نريد دائما... بالحسرة نقضي حياتنا نرمي العملات في الماء والتي لا نثق بها، بل نثق أننا لن نحصل إلا على الخسارة مصحوبة باليأس. وكأننا نقول نحن نحصل على ما نثق به دائما... أثق أني لست محظوظا ثم أندب الحظ أنني لست كذلك بل بالعكس، ما وثقت به فعلا حصل فلم لا نثق بما نريد بتلك القوة التي نثق بالعكس بها؟... لن تكون مجرد فلسفة مفرغة، إنها إحساس كلي يحاكي داخلنا المنهك من خربشات الأيام والأحلام المتلاطمة.

تخلفنا كثيرا عن شيء اسمه الأمل والإرادة ورمينا الطموح بعيدا عن أيدينا وقيدنا أنفسنا بالاكتئاب والفشل..

وفي النهاية نريد أن ننجح بوعاء يائس لا يحمل أي مصير...

بقي عمار ضيفا على ذاك البيت البسيط بقمة التلّة حيث كانت تطل نافذته على مزرعة أبيه القاحلة الجرداء، وقد برز بيت كبير في وسطها شبابيكه العلوية كانت تحكي قصة هجره وبكائه أصحابه القدامى.... كان يقضي يومه واقفا على الكرسي يطل من تلك النافذة الصغير بأعلى الجدار وقد كان يحجب عنه المنظر جزءٌ من جدار البيت المجاور، وقد كان يحكي لنفسه في كل مرة حكاية مختلفة عن الأخرى لكن نهايتها كانت نفسها دائما ذاك السؤال المحير.. ماذا جرى فعلا؟؟

بقي مختبئا لفترة حتى شفي...لم يخرج من بيت الشيخ موسى الذي كان يمضي يومه الطويل في تدريس أولاد القرية ويحفظهم القرآن الكريم... أدرك أن هذا الفتى لم يكن غريبا عن القرية كما يبدو. كانت به ملامح الحاج إبراهيم تماما والرجل بفراسته أدرك ذلك وكان ينتظر عمار فقط ليثق به ويتكلم..... كان يدرس الأولاد منذ الفجر ويصلي بالناس في الجامع ويعود لزوجته بين الفترة والأخرى يتأكد من حالة عمار التي كانت تعتني به قدر استطاعتها....

بعدما استعاد عمار عافيته لم يكن له بد من فتح قلبه للرجل وحكى له ما جرى له دون سرد التفاصيل الكثيرة:

- **المهم لابد أن تبقى غير معروفٍ لأهل القرية وألّا يجدك الرجل الغريب بل لابد من حل سريع...**

يخاطب العجوز عمار بعدما أدرك حجم المشكلة التي هو فيها.

كان ذلك العجوز فطنا... أدرك نداء النجدة ذلك وفورا فكر في إيجاد الحلول عله يجد للفتى مخرجا ينجيه.. قام وصلى ركعتين وقرأ ما تيسر له من القرآن وقال:

- **تعال جالسني يا عمار... إليك ما يجب أن تفعل....**

بعدما شرح له ما يجب أن يفعله بتحديد زوايا وأبعاد كل قول أو فعل بحنكة ودقة شديدتين، أردف يقول:

- **عليك يا بني أن تواجه مصيرك وليكن في علمك أن الأرض التي في أعلى القرية تلك ملك لوالدك -الله يرحمو- وأولاد عمومته قد استولوا عليها لكنهم في قتال دائم –حالهم ما يعجبش–. كل موسم تنشب بينهم المعارك حول من يزرعها ويعمل عليها فهم حادو الطباع جدا خصوصا بعد وفاة كبير العائلة الحاج علي، -الله يرحمو– الذي كان أكثرهم رجاحة عقل وقد كانوا يهابونه، للأسف أصبحت قاحلة تلك التي كانت جنة على عهد والدك وجدك، لذا تعاملك معهم مستحيل، إذ على عمتك أن تأتي إلى هنا وتعترف أمام أهل القرية أنك ابن الحاج إبراهيم أنت وأختك ويشهد الجميع على ذلك يا بني... مادامت عمتك على قيد الحياة وهناك شهود عيان يعرفونها... هي دليلك، عندها فقط يقف معك أهل القرية ويصدقونك وتعود ملكية الأرض لك ولأختك، ولك حق التصرف فيها واستخراج الأوراق التي تثبت ذلك الحق.**

كان عمار يستمع بانتباه للشيخ لكنه تارة كان يشرد ويعود إلى بيته الصغير هناك وأعماله الليلية البسيطة في التمريض ويتذكر عمته وأخته وتارة كان

يلوم نفسه ويتحسر "**كم كنت جاهلا... علي مواصلة الطريق**.."، فيعود ويقوي عزيمته يدفعه حماس الشباب وترتفع همته....

بقي عمار يفكر ويفكر... ثم يتساءل "لماذا يلاحقني ذاك الرجل؟ هل علي أن أواجهه؟"... يعقب بحسرة.. "لا طبعا. سيقتلني قبل أن أنطق بكلمة واحدة... يقوم من مكانه ويحدق في سقف البيت المصنوع من الخشب يشد على قبضته بقوة ويقول في نفسه "إن وراءه سرا. ترى ماذا فعلت له ليحمل لي كل هذا الحقد؟".... ثم قرر بعد أخذ ورد أن يتنكر ويراقبه، لابد أنه ما يزال بالقرية...

ذلك الفتى لا يعرف ما الذي يقدم عليه... عساها تكون العاصفة التي تعري القرية عن ذكريات سنين دفنتها الخيبة والنسيان... لكنها قد تكشف مستورا لا يسر... فكن حذرا... وراء كل مخفي، حتما أمر قاس قد يؤذيك إلى درجة لا تتصورها.

قام صبيحة اليوم الموالي نشيطا عازما... أخذ من ثياب الشيخ عمامة وغطى بها معظم وجهه ولحسن حظه كانت الرياح يومها شديدة والسماء متشائمة حد الاختناق... انطلق وفي عينيه كانت شرارة الحقد والانتقام... "يا أنا يا هو اليوم" وكأن على يسار كتفه شيطانه ذا القرون قابعا يحمل رمحه الناري ويهمس له "هذا نهارك"...

الشيخ الحكيم بقي يراقب تصرفات عمّار بانتباه مندهشا من ذكائه وإصراره وكذا شجاعته... يحدث نفسه بتفاؤل "فيه الشيء الكثير من والده

هذا الفتى..." لكنه لا يعلم عن قصة الرجل الغريب شيئا. وعمار لم يشأ أن يصف له غريمه حتى يرى في شأنه حيلة...

خرج عمار ذلك اليوم باكرا وبقي يدور في شوارع القرية بخطى ثابتة يراقب الحركة والسكون، حتى وصل إلى مزرعة والده. بقي متخفيا بها يراقب ويتجسس ويجول بنظره في أرجائها. لا شيء تحرك بها. تشجع قليلا وقرر الدخول والاقتراب أكثر من ذاك البيت وبعد برهة اقترب من البيت. لا أحد كان به. كانت مجموعة أغراض متناثرة موضوعة وغير مرتبة. مجموعة أدوات قديمة وكأنها لم تحرك من مكانها منذ عقود. كل هذا كان من خلال النافذة المكسورة، كانت الملامح كئيبة حزينة ذلك المحراث القديم... ذلك المقصب الذي تربت بين أسنانه الطفيليات ونمت عليها أعشاب ضارة.. وهناك الخاشوق الصدىء متكئا على ذلك الصندوق بالزاوية المتشقق من الرطوبة وقد غرس في أرض الغرفة كأنه نما منها... وتلك الفأس العاطلة عن العمل... ثم ذلك الغرض هناك.. الكانون ما الذي أتى به إلى هنا وذاك هناك ما هو فانوس؟؟ بقي يتطفل عمار من وراء النافذة مستغربا... أغراض كثيرة كانت هناك مكدسة لا علاقة لها بالمكان. وكأنها المزبلة العمومية للحديد والصلب...

المكان لم يكن مستغلا جيدا دار حول البيت، لم يكن هناك مدخل آخر غير هاته النافذة. التفت حوله جيدا ثم قفز بداخله متجاهلا تماما تحذير الشيخ له..

أخذ يفتش في تلك الأغراض عله يجد غرضا قديما يدله على شيء ما وإن لم يكن يعرف عما يبحث تماما... بقي يبعثر الأغراض ويحدث الضجة دون أن ينتبه حتى دخل عليه أحدهم شل حركته تماما...

****

كان كل شيء جميلا.

كانت هناك غيمة في السماء. بقيت شهلا تراقبها وهي تسير ببطء شديد بينما تنتظر الياقوت حتى تجهز نفسها وتارة كانت تنظر إلى عمتها الجاهزة أيضا... ما كان يضر لو أنها لم تقرر الذهاب معنا. كنت سآخذ حريتي أكثر مع الياقوت... ثم إنها ستلتقي بزبيدة وقد تعرفان بعضهما.... تحدث شهلا نفسها.

نزلت الياقوت تجر تلك الحقيبة بيدها..

- **ما كل هذا الياقوت؟!!**...

- **ملابس وماذا تكون؟!! وبعض أدوات التجميل، ماذا تظنين؟ سأبقى بثوب واحد طوال السهرة... كما أني جلبت لك ذلك الثوب الأسود الذي أعجبك المرة الماضية...** بابتسامة طفولية.

- **ماذا؟!! أنا.. لن أغير ثوبي.**

- **الكل يفعل ذلك. لا تعقدي الأمور.**

- **تحركنّ يا بنات. يجب أن نصل قبل حلول المساء...**

تستعجلهم العمة عتيقة.

غادر الجميع البيت. أغلقت الياقوت الباب بإحكام، فالخالة عند الطبيب ووالدها أخذ الأولاد معه إلى السوق، وصلت شهلا وعمتها والياقوت إلى الحفل وكلاهما مندهشة بالتنسيق والتحضير المحكم وجمال التزيين وفخامة الأثاث وكذا أناقة الأشخاص المدعوين. بدا الثلاثة فور دخولهم كالتائهين. لولا أن والدة وداد استقبلتهم بحرارة وأدخلتهم وهي تشع سعادة وأخذت تعانق عتيقة بحرارة تنم عن معرفة قديمة. بقيت شهلا مندهشة من ذلك تنتظر وترقب ردة الفعل.. لكن الياقوت كانت تجرها بشدة إلى طاولة هناك وهي تقول: هنا أفضل... حتى نرى المشهد الكامل للحفلة ونكون قريبين من مكان جلوس العروس. ذهبت معها هناك وجلست وعينها على عمتها وتلك السيدة.. لكن شدة تزاحم الجالسات وفوضى الأطفال ودورانهم حول المكان، لم تعد تستطيع الرؤية جيدا، وتارة كانت تلتفت إلى الياقوت وذلك البريق من السعادة في عينيها قد أعماها، بريق ثروة هؤلاء فلم تقرأ ذلك القلق في وجه شهلا التي استسلمت أخيرا وقررت أن تساير الوضع، فذهبت مع الياقوت، غيرتا ملابسهما وجلستا بين الحضور في شموخ واعتزاز...

تحياتي إليك يا أخي الغائب.. يا قلبي المجبول على المتاعب... ماذا بعد اليوم؟ ألن يأتيني الفرح!! اللهم آتني بهم جميعا. لسان حال شهلا وما اعتراها من ظل ذكرياتها القديمة..

وبينما الكل في أخذ ورد ورقص وغناء، بقيت شهلا مشدودة الذهن والخاطر لم تعرف إن كانت مسرورة بوجودها إلى جانب وداد في مثل هذا

اليوم أم ماذا حل بها، في حين أن قلبها بنفس الوقت انكسر إلى شظايا تناثرت على ملامحها الجميلة وبانت في عينيها تلك الشروخ والأجزاء، وكما تعودت لم تكن لتظهر ذلك الوجه المكتئب تحت وجهها الباسم المليء بمساحيق التجميل... لكنها برغم ذلك بقيت متمسكة بالقوة كالقابض على الجمر، كانت تدمع بصمت ليس من شدة التأثر بالموقف والعروس توزع الورود والحناء على العازبات أيتها السيدات... لا ولكن هذا السيل قد فاق ذاك الصبر والكظم... نفس شعورك حين تستمع لموسيقى حزينة تأخذك مجبورا لاسترجاع ذكرياتك المؤلمة بتفاصيلها وبكثير من المبالغة لتشعرك بالأسى أضعافا مضاعفة وانتقاما من نفسك البريئة حتى لا تسعد مجددا تذكرها بما جرى بعيدا عن هذا الواقع الذي تشعر فعلا أنه لا يمت لك بصلة... مع أنك بشكل طبيعي ستعيش اللحظة بأسى إحساس لديك تستنزف مشاعرك الحقيقية في زيف لا داعي له ولا حقيقة له. مجرد سحابة عابرة لا جدوى منها...

جاء العريس ليأخذ عروسه. هرعت الفتيات للتلصص كعادتهن حتى الياقوت ذهبت معهن، وبقيت شهلا في وسط ذاك الزحام تتلاطم من هنا وهناك، تتقاذفها الأجساد المتدافعة حتى وصلت إلى مقعد العمة عتيقة وجلست بشرود...

- **شهلا ما بك تعبت أم ماذا؟**
- **نعم ظهري يؤلمني جدا... أشعر بدوار وغثيان.**

- **عادي... لأنك لم تحضري حفلات من قبل، بعد قليل سنغادر إلى البيت وترتاحين..**

- **بالمناسبة، لم تقولي لي أن والدة وداد كانت من جيراننا القدامى... لقد أخبرتني فور أن رأتني، بقينا ننبش ذاكرتينا حتى توصلنا لذلك..**

بقيت تواصل الحديث وشهلا شاردة الذهن ثم فجأة لمحت ذلك الطيف الجميل خلف الباب هناك. لم تكن عليه هيئة العريس... ثم تقول متجاهلة الحضور..

- **لا!! العريس أخذ عروسه وغادر منذ قليل...**

كان الطيف يشير إلى والدة وداد حتى تقابله..

لم تتمالك شهلا نفسها. قفزت دون تفكير ووجدت نفسها خلف ذلك الباب واقفة... وقد كانت والدة وداد تكلمه. لم تفهم ماذا يقولان وليست هناك لتعرف كانت هناك لتراه.. إنه ليس العريس، وداد لم تتزوج بهذا الرجل... ابتسامة عريضة بلهاء علت وجه شهلا لكنها لم تبد بخير أبدا... نظرت إلى الأرض في استغراب واستفهام موجهة خطابا حادا لنفسها "لم ظننت ذلك أنا؟ إذن لم لم أسألها؟.. إلى هذا الحد كنت خائفة من الحقيقة؟..."

بقيت في الدوامة حتى كلمتها السيدة زبيدة.

- **شهلا ودعت صديقتك؟ لعقوبة ليك بنتي.**

- **أجل.. ربي يسجيلها...**

فجأة تجمد الدم في عروقها وما استطاعت النطق أكثر من هذه الجملة... لم تشعر شهلا بالرغبة في الكلام ولا حتى التفكير. ازداد نبضها

واشتد دوارها ولم تتمالك نفسها فبدأت تتمايل وكادت تقع، لولا أن أمسكت بها السيدة زبيدة وقادتها لأقرب مقعد وطالبت ببعض الماء...

بقي مصطفى يراقبها من بعيد لبرهة وفي نظراته بضع جمل تفسيرها الوحيد بريئة جدا هاته الفتاة، ثم استدار وغادر مستعجلا...

ذلك الهمس الخفي حين يحيطنا من كل جانب ما هو إلا نسيم أمنيات قديمة يخبرنا أن القادم أجمل وأحلى فقط... صبرا جميلا والله المستعان على ما تصفون...

حلّ الظلام وفرغ المصلون منذ مدة من أداء صلاة العشاء وغادروا إلى بيوتهم، والرجل العجوز واقف عند عتبة باب بيته ينتظر عمار الذي خرج منذ الصباح ولم يعد...

بعد هنيهة عاد ملثما بتلك العمامة.. وآثار التعب بادية عليه، فقد كان ثوبه مغبرا جدا كأنه كان يزحف على الأرض ولم يكن يمشي على قدميه.. اقترب من البيت متخفيا، استقبله العجوز بالأحضان وسارعا بالدخول إلى البيت...

سارع العجوز إلى زوجته وطلب منها الاستعجال في وضع الطعام... ثم جلس إلى عمار ينظر إليه وهو صامت وعيناه تحكيان سلسلة من الأحداث التي لابد أن يبوح بها.. لكنه لم يود أن يسأله الآن حتى يتناولوا العشاء ولكل حادث حديث...

- **اسمع يا شيخ...**

ذهبت إلى مزرعة أبي هذا الصباح. لم أكن أنوي الذهاب من البداية لكني بقيت أسير في القرية حتى قادتني قدماي إلى هناك وغلبني الفضول. قلت في نفسي ألقِ نظرة خاطفة فقط. لكني عندما اقتربت ولم أجد أحدا هناك.. تشجعت أن أقترب أكثر ودخلت إلى المنزل من خلال النافذة المكسورة وبقيت أتجول بنظري هناك وتارة ألقي نظرة إلى الخارج لكني نسيت نفسي وأخذت راحتي بزيادة وأنا أبحث عن شيء لا أعرفه.. فجأة دخل علي أحدهم.... ذلك الموقف جعلني أتجمد من الخوف قبل أن أدرك أنه طفل في العاشرة تقريبا. التفتّ إليه وسارعت بإيجاد كذبة مناسبة لأنجو من هذا الموقف، فبقيت أبتسم له وهو لم يتكلم، بقي واقفا ينظر إلي ثم قال لي معتذرا: تركت لعبتي بالأمس هنا، جئت لأستعيدها ليس إلا...

حينها فقط عادت إلي روحي وعرفت إنني نجوت.. فمثلت عليه دور المتعصب المنزعج وقلت له: وكيف للعبتك أن تصل إلى هنا؟

وأخذته من يده وسحبته بعنف إلى خارج المنزل، وقفت معه تحت ظل شجرة هناك كي أخفي نفسي جيدا عن عيون أحد ما قد يكون مارا بالقرب من المزرعة فيكشف أمري وبقيت أحادثه وهو يشرح لي كيف أنه هو وأصدقائه يأتون إلى هنا كل مساء للعب الكرة وتسلق الأشجار... أو الغميضة... فلا أحد يأتي لهذا المكان إلا نادرا على حد قوله... وقد كان هنا بالأمس مع أصدقائه كالعادة، وبينما هم يلعبون مر بهم الرجل المجنون الذي يتردد على بيت إبراهيم المعروف بالقرية بالشبح.. وقد بقي ينظر إليهم طويلا ويحدق بهم بغضب مما جعلهم يهربون إلى خارج المزرعة تاركين

ألعابهم خلفهم وقد جاء في هذا الصباح لاستردادها، فالكرة لم تكن له لأخيه ولو علم أنه يأتي إلى هنا سيوبخه زيادة لو وجدها أصحاب المزرعة سيمزقونه... ولا أعرف يا شيخ ماذا حصل لي حينما قال لي أن الرجل الغريب كان هنا مساء الأمس وقد كان بجوار المزرعة، خفت كثيرا وبقيت ألتفت من حولي وأتساءل لعله ما يزال هنا مختبئا... وقد يكون رآني و يخطط لمهاجمتي في أي لحظة.... تركت الطفل، قد عاد ليبحث عن لعبته ونسيت أمر المنجل بيدي، لم أرجعه إلى مكانه.. وهرولت إلى خارج البيت وكل عرق من جسدي يدق كأنها دقاته الأخيرة. أحسست كأنه أصابني هبوط في السكر وبقيت أتمايل حتى ابتعدت كثيرا واختفيت. ولم يعد يظهر لي المنزل وأخذت أسير في اتجاه لا أعرفه ولم أنتبه أنني ابتعدت أكثر من اللازم... وصلت منزلا كنت رأيته حين دخلت أول مرة إلى القرية، بيت قد غمر التراب بابه فصار من المحال أن يفتح وقد تكسرت كل شبابيكه وقد مال السقف عليها كان بيت هرما جدا.. ومخيفا. أذكر أن الأولاد الصغار يومها كانوا يقولون أنه بيت الساحرة.. رفعت نظري إلى سقفه المتهالك برهة حتى أحسست بيد خشنة على كتفي يا شيييخ.. صرخت بأعلى صوتي لكني لم أسمع نفسي تماما كما يحدث في الأحلام المخيفة المرعبة، حينما تريد أن تصرخ ولا يخرج لك صوت.. فيزداد خوفك.. كذلك أنا.. نفس اليد..كنت أعرفها ..لم يبق إلا أن تغرس الأظافر في لحمي حتى أتأكد.. جهزت نفسي فورا للهجوم... التفتّ بكل قوتي وأمسكت بذراعه بقوة. بقي هو ممسكا. لم

يفلتني ولم أفلته وسمعته يقول نفس الكلمة التي قلتها بأعلى صوتي "جابك ربي".....

بريق العينين بدا كالبرق يشع من عيني عمار بينما لم يكن يبرز من الغريب سوى تلك اللحية المبعثرة وقد وقف بالقرب من الجدار المتهالك تماما كالمرة الماضية كأننا سنكمل المشهد الذي كنا فيه سابقا دون اعتبارات للمكان أو الزمان.. بقي عمار يحكي للشيخ والعجوز مندهش من الحكاية، أتراه كان يحلم أم هي قصة حقيقية.. "ما أبشع هذه الصورة والموقف الذي أوجدت نفسك يا بني". يخاطب نفسه وهو متلهف للاستماع للحكاية.. "ترى كيف نجوت يا فتى من هذا الذي لم تستطع وصفه؟.. الشبح" وعمار يحكي للشيخ ما حدث. كان تارة يقف، تارة يجلس، تارة ينظر للشيح بكلتا عينيه، تارة ينظر إلى تلك الحصيرة ويداعب خيوطها بعبث.. وحين وصل إلى هذا الحد كان قد اختنق من الكلام وأحس الشيخ أنه قلق ومتوتر لما كان يحرك يديه بسرعة وعدم انتباه.. فأراد أن يخفف عنه فقال له:

- **عمار.. أعرف أنك لم تخبرني حقيقة هذا الرجل والأمر الذي جعله يطاردك يحيرني.. هلا أخبرتني بقصته من البداية حتى أتابع معك كيف وصل بكما المطاف إلى هذه البقعة النحس من القرية..**

تنهد عمار ولم يجب الرجل، اكتفى بالنظر إليه والتردد على تناول ذلك الطاس من اللبن والاحتساء منه في كل دقيقة...

- **حسنا يا عمار. احك لي ولا تخف. أنت بأمان بإذن الله.. حتى أستطيع مساعدتك وحمايتك.**

نظر عمار إلى الشيخ كأنه يعقب على كلمة "أساعدك" وفي نظرته استهزاء وحديث برأسه، كيف لهذا العجوز أن يحميني؟ فلو قابله شخصيا أتوقع أن يخر العجوز ميتا على الفور ولن يعقب. لكنه يعلم أنه لابد من سرد ما جرى.. حتى يخفف من حمله الذي على كتفه ويرتاح.. فجأة انكمش على نفسه ورمى بجسمه على الجدار وقال:

- **قتلته يا شيخ...**

قالها ووجهه بين العبوس والابتسام لا يفسر...

- **نعم قتلته يا شيخ..**

وبقي يكررها على مسامع العجوز.. مؤكدا له ما سمعه.. ثم بسط جسمه كله على الفراش ثم انكمش مجددا ولم ذراعيه كأنما المرض أبرده.. وأردف والرعشة قد عقدت لسانه.. **هل علي إثم؟!! يا رب يا رب.**

أصاب الذعر الشيخ والتعجب ولم يعرف ماذا عليه أن يفعل الآن، ماذا عليه أن يقول له، فما كان منه إلا أن اقترب منه ووضع يده على رأسه المحموم وأخذ يقرأ عليه آيات من القرآن الكريم وهو يردد:

- **أنت بخير لا باس عليك لا تخف.**

وبدأت الرعشة تسري بجسده من شدة الحمى.. فأسرع العجوز إلى الرف هناك وأحضر غطاء سميكا ووضعه عليه واتكأ عليه بكل ثقله.. وآيات القرآن الكريم لم تفارق لسانه... وبدا صداها الروحي يزلزل أركان ذاك البيت الطاهر من زاوية إلى زاوية ومن ركن إلى ركن كأنما الملائكة قد نزلت تلف المكان وتمنحه الراحة والطمأنينة بعد هذه الهزة العنيفة.

مساعدة العجوز التي حلت رحمة من رب العالمين...

في الغد و بعد أن زال عن عمار الفزع بدأ يسرد على الشيخ ما جرى له وكيف عليه أن ينجو مما فعله... وواصل يقول:

- فجأة خيم نباح وصراخ لم أعرف مصدره وبقيت يد الغريب تضغط على كتفي ثم بدأ يحاول استغلال شيء من بين ثنايا ردائه فأدركت الخطر المحدق بي فألهمني الله ساعتها قوة لا مثيل لها.. رفعت ذراعي وكان المنجل الصدىء ما يزال بيدي وقمت بكامل قوتي وضربته على يده فانتفض من الألم أو من الخوف. صرخ صرخة مدوية خرقت طبلة أذني وكأنها من عالم آخر كسبت بعض الوقت والتزمت الجدار وكتفي ما يزال يؤلمني وآثار أصابعه الخشنة باقية عليه تشعرني وكأنها مغروسة بلحمي كأنه يضع كامل ثقله علي.. زادت شجاعتي وبقيت أرتقب ردة فعله.. وبلمح البصر وجدته وقد أصبح على مقربة من وجهي وقد لوى لي ذراعي حتى كاد يكسرها فوقع المنجل من يدي وأدركت حينها أني منتهٍ لا محالة.. لكنه كان ما يزال ينزف فلم يستعمل يده الأخرى ولم يكن يبدي التألم أبدا كأن تلك اليد لم تكن موصولة بذراعه مطلقا. اقترب بوجهه الكريه مني فرأيت تقاسيمه القبيحة وازداد رعبي أنه ليس من عالم الإنس... وأحسست بتنميل أطرافي.. أتراه الموت قادما نحوي يهرول وساعتي الأخيرة هذه ثوانيها تدق كدقات قلبي وأنفاسي.. حتى همس بأذني:

- **كنت قتلتك منذ زمن لولا ذاك العهد**..

قلت في نفسي ألن يقتلني؟....

أفلتني بخيبة وأسف شديدين... وفور أن تراخت يده من على ذراعي سارعت للابتعاد قليلا ومازلت أردد المعوذتين وأرتل بكل جوارحي بقدرة من الله وحده وثبات قلبي حينها..

عيناه بقيتا محدقتين في عيني لم ترمشا مطلقا ولا مرة شعرت بقوته وازداد ضعفي... لكني مع كل ضعفي وقلة حيلتي التقطت المنجل وبقيت ممسكا به بكل قوتي كتهديد له أني مستعد لقتله... لكنه لم يكن يبالي كأن الموت لا تعنيه...كانت عيناه تزدادان احمرارا ثم قال لي ضعه من يدك لن ينفعك.. فأنت ميت منذ زمن، ثم ضحك ضحكة مدوية في ذلك الشارع الخالي من كل شيء.. حتى من الأكسجين... احمرت عيناه. تخيلته ذئبا كشر عن أنيابه وقال لي:

- **أنت ميت في جسد حي...** وأردف

- **لم يكن والدك مقاوما بقدرك.. استللت روحه يومها بكل سهولة بضربة خاطفة من يدي... لم يكلفني جهدا على الإطلاق.. كان يائسا لم يتمسك بالحياة...**

هنا في مثل هذا المكان والتاريخ منذ زمن..

وبدا يتحدث مستمتعا بإنجازه مما زادني غيضا فهجمت عليه.. والمنجل بيدي، ضربت عنقه... لا لم يكن إنسيا...لم أتمكن منه بل أحسست أن ذراعي قد شلت وكل ما فعلته قرأت آية الكرسي ورددتها بلساني طويلا...

وحدي كنت في دهشتي وحيرتي... خائفا وقويا في نفس الوقت... انتبهت يا الحاج، إنني كلما قرأت القران يضعف ويبتعد قليلا، فأيقنت ساعتها أنه

ليس إنسيا فأخذت متكأ لي تحت البيت الخرب ذاك وأخذت في قراءة القرآن وتجويده بأحسن ما أستطيع، كل ما أحفظه من آيات الرقية الشرعية... وانتابني ساعتها الهدوء، أغمضت عيني... حتى أحسست بثقل على جسدي كالجبل ففتحت عيني مفزوعا.. وكل ما رأيته ذاك الرجل واقع على الأرض غارق في دمه وكان المنجل بيدي يقطر دما فكل ما فعلته رميته من يدي بسرعة ولملمت نفسي المشتتة وأخذت أجوب بنظري باحثا عن طريق عودتي ثم أسرعت مخفيا رأسي عن كل من التقيتهم خوفا من اكتشاف جريمتي، اختبأت مدة أراقب ثم عدت إلى البيت...

- **ترى هل سمع أحدهم عن وجود جثة؟....**
- **سأخرج لصلاة الفجر وأعود بالخبر اليقين...**

رد الشيخ وهو يهم مسرعا للخروج...كان الرجل العجوز صاحب الخبرة الطويلة يصغي إلى عمار ويتعوذ من الشيطان الرجيم....

- **يا بني لا أرى أنه كان إنسيا هذا المخلوق، لربما كان جنيا....**

خرج إلى الجامع القريب من بيته ذاك الإمام الطيب.. وهو يراقب عيون الناس من حوله.. عله يسمع شيئا عن حكاية الفتى عن ذاك الغريب....

نعم هناك مجموعة فتية دخلوا إلى القرية مع الفجر وجدوا جثة رجل ميت عند منزل السيدة الساحرة كما يسمونه أهل القرية...

الإشاعات انتشرت في الأنحاء كالسم في الجسد... وجد ميتا في نفس التاريخ اليوم نفسه والشهر المشؤوم... من يكون هذا الرجل؟...

سارع الإمام مع مجمل أهل القرية إلى مكان الجثة الغريبة... جلس.. قريبا منها ودقق النظر في ملامحه المرعبة... "إنه هو.. بالتأكيد..."

التفت إلى أهل القرية المتجمهرين من حوله وكلهم خوف وترقب وهم يتهامسون.. من الذي قتله؟ لا حول ولا قوة إلا بالله...

لقد كان يتردد على القرية كثيرا في السنوات الأخيرة... ولا أحد كان يعرف ملامحه بدقة نظرا لذاك الرداء الذي لا يغيره كأنه يقصد به إخفاء ملامحه...

"جثته كانت عفنة لدرجة توحي أنه مات منذ مدة طويلة. وليس فقط البارحة على زعم عمار.." يحدث الإمام نفسه بحيرة بالغة ونظراته لم تحد عن وجه الجثة.. ما حكايته..؟

أخيرا وقف و طلب منهم حمله ودفنه وقال:

- **مؤكد رجل مجنون وقد هجم عليه أحد الكلاب الضالة بالقرية للإصابة البالغة في يده وقد نزف كيرا هذا أجله... لا أظن أنه هناك من قتله.. فمن يجرؤ على الاقتراب منه... ومن يريد قتل رجل فاقد الأهلية تماما.. مسكين أجله، احملوه واستروه الله يرحمو..**

انتشر أهل القرية ودفنوه بهدوء وذهبوا إلى أشغالهم تاركين ذاك السر وراءهم.. مات من هجوم حيوان مفترس.. فالبيت كان في حدود القرية قريبا من الغابة..

مر ذاك اليوم كله على عمار داخل زاوية البيت الصغيرة قرب المدفأة الصغيرة..لم يجرؤ على الخروج ومواجهة الناس.. كان مصدوما يحمل بقلبه

ذنبا لا يعرف أسبابه.. رغم أنه كان يقول لنفسه في كل مرة.. دافعت عن نفسي ليس إلا..

وبعد صلاة العشاء من ذاك اليوم..

- **عمار حكايتك تلك فيها نسبة كبيرة من الغرابة**.. وضع يده على كتفه وقال:

- **هل تعلم؟ كانت الجثة وكأنها ميتته منذ زمن طويل.. وليس كما أخبرتني..**

كما أن هذه ثاني جريمة تحدث في القرية بعد اختفاء والدك الغامض. هذا ثاني أمر غريب يحدث.. هل تفهمني؟.. هناك من قال أنها بنفس اليوم والشهر.. وهنا مربط الفرس..

كان عمار صامتا ولم يرفع وجهه للعجوز.. بل بقي يجول بناظريه باستغراب دون أن يأتي بأي حركة.

- لقد صدقت بأنك ابن الحاج إبراهيم.. ولم أكذبك.. لكن أهل القرية لن يصدقوا ولو عرفوا حقيقة ما حكيته لي.. لن يتركوك بسلام مطلقا..

كما قلت لك، أنا لن أحميك أكثر من هذا، قلت لهم أنه مات بسبب هجوم حيوان مفترس.. ولم أر في عيون البعض تصديق ذلك.. فالضربة في يده كانت واضحة ولم تكن عضة كما إني لاحظت المنجل الذي حكيت لي عنه مرميا هناك.. حاولت إخفاءه قدر استطاعتي عن أعينهم.. وضعت عليه صخرة مجاورة للجدار في غفلة منهم..

- **أتطلب مني أن أغادر القرية؟**.

-غادر في الصباح الباكر عد إلى بيتك... إن كنت تريد العودة فعليك أن تفعل ما أخبرتك به سابقا.. حلك الوحيد..

- لا بأس، سأغادر في الصباح الباكر... وبارك الله فيك على كل ما فعلته من أجلي...

ذهب العجوز للنوم... وترك عمار وقد اتخذ وضعية الجنين على الفراش غير قادر على تحريك عضلة واحدة فيه.. ولا حتى أن يسدل الغطاء على جسده الضعيف..

"قتلت نفسا.. أم قتلت جنيا.. ترى هل مازالت روحه تلاحقني؟" همس لقلبه خفية... ثم تعوذ من الشيطان ونام..

للغد حكاية يوم جديد تنتظر أن تروى....

****

بعد يوم شاق ارتمت شهلا على الفراش أخيرا منهكة تماما والدوار مازال يلوح على رأسها تلويحا خفيفا...

- **هل تحسنت قليلا؟**...
- **نعم أحسن..**
- **لقد أخفتني كثيرا. لم أعرف ماذا أصابك.**
- **أعتقد أني غير متعودة على ضوضاء الأعراس**..

ثم تبتسم ابتسامة سخيفة لتمسح من ذاكرتها ذاك الإحراج الذي كانت تشعر به بقلبها ولم يحس به أحد..كانت أطيافها الجميلة التي خالتها قد

ماتت منذ مدة تتجلى أمام عينيها وفرح غريب كان يعد قلبها بالزيارة المرتقبة..

حاستها التي لطالما كانت مجلبة للشؤم.. اليوملم تعد كذلك، ها هي تتمدد على الفراش وعينها تكاد تذرف دموع السعادة لأول مرة في حياتها حسب ما تذكر.. ذاك القلب الطاهر لم يعرف الحب يوما.. الحب الحقيقي...كانت تحدث نفسها.. لو لم تكن حقيقة ما كانت لتكن فرصة من البداية... ونامت بهدوء شديد.. ونبضات قلبها تحكي لها نغما مختلفا هذه المرة.. موسيقى بلحن السعادة والأمل.. ترى إلى أين يأخذك هذا الحلم الجميل يا شهلا؟.. هل ستكونين شهلا بهذا القدر الذي تنتظرينه عزيزتي؟.

في الغرفة المجاورة كانت العمة ما تزال مستيقظة. كان هناك أمر ما مختلف تماما وبعيد عما أذهل شهلا.. بقيت تتقلب في فراشها طوال الليل وأحيانا كانت تجلس وترفع الغطاء عن قدميها تدلكهما قليلا ثم تستلقي مرة أخرى وبقيت هكذا طوال الليل.. وهي الأخرى كانت هناك دموع في عينيها تكاد تنهمر... حلم جديد يزاحم كي يتحقق..

بعد يومين....

وفي الصباح جلست العمة وفنجان القهوة بين يديها ترتشفه بهدوء وحكمة كعادتها وشهلا إلى جانبها جالسة على الأرض شاردة كعادتها هي الأخرى لكن شرودها كان مختلفا عن كل تلك المرات السابقة.. حتى أفاقتها عمتها.

- **أفكر في زيارة للسيدة زبيدة..**

وضعت شهلا الفنجان من يديها بدهشة..

- عمتي ولماذا نزورها؟؟!!..

وفي قلبها شيء يقول لها فكرة جيدة..

- السيدة زوبيدة امرأة محترمة جدا وستكون ممتنة جدا لهذه الزيارة. قلت لنفسي نحن لم نعد إليها منذ يوم العرس. عيب ما ستقول عنا..

كانت شهلا تقوم بغسل فناجين القهوة بينما تستمع لعمتها التي كانت ما تزال جالسة في الحوش بجانب باب المطبخ.. وشهلا تبتسم ابتسامة بها الكثير من السعادة رغم بساطتها.. وعدم وضوحها الشديد.. مسحت يديها برف ثوبها بارتياح وقالت..

- لا بأس نذهب إليها لا مشكلة.

- ومن قال نذهب؟ سأذهب وحدي..

- لماذا؟ أريد أن أسألها عن أخبارو داد

- قلت سأذهب وحدي.. لا داعي لذهابك. لا يمكن أن نترك البيت وحده.. ربما يعود أخوك يا شهلا.. اجلسي أخبرك بحلم رأيته البارحة.

شهلا لم تكن تريد أن تستمع لشدة دهشتها.. من تصرف عمتها.. إذ كانت تريد الذهاب لوحدها بإصرار على عدم مرافقتها..

- اسمعي رأيت حلما بأن عمار سيعود لكنه سيكون مهموما.. أو أنه يحمل أخبارا غير سارة... ستكون غريبة ومؤلمة لأني لم أكن مسرورة جدا برؤيته...

- **هل سيكون بخير؟..**
- **لا أدري.. هذا ما دلني عليه قلبي بعدما استيقظت وآذان الفجر بأذني فصليت ودعيت أن يكون خيرا...**
- **سأذهب بعد الظهر**
- **بهذه السرعة..**
- **أجل..**

كانت شهلا تريد الذهاب معها بشدة.. لكنها لم تكن تريد أن تصر فتكشف عمتها سر إصرارها الغريب.. فسكتت.. وقالت.. بلامبالاة مظهرة عكسه تماما.

- **جيد سأبقي من أجل ثوب جارتنا.. أبدأ على العمل به حتى تعودي**
- **جيد...**

حل المساء بسرعة وبقيت شهلا وحيدة بالبيت تلهي نفسها بقطعة القماش تلك تفصلها وبينما هي مشغولة... سمعت باب البيت يفتح ويدخل أحدهم ويغلق الباب خلفه.. انتفضت من مكانها مسرعة وفي ظنها عمتها قد عادت.. لكن غير معقول، فلابد أن تكون ما تزال في طريق الذهاب، لم يمر سوى نصف ساعة وما لبثت تقوم وتترك من يدها أدواتها المعتادة وتضع قطعة القماش بانتباه على الطاولة وتلتفت لتجده في وجهها واقفا كطيف من الماضي تلاشت نصف ملامحه من غبار السنين المتراكمة..

- **عمااار....**

تصرخ شهلا وتسارع لاحتضانه.. بينما يبقى هو واقفا لا يحرك ساكنا.

- **اجلس عمار.. "يا خويا" أين كنت؟ خفنا عليك**
- **اجلسي شهلا.. حكاية طويلة... أين عمتي؟!!**
- **ليست هنا. ذهبت إلى زيارة صديقة لها**
- **أخبرني ماذا جرى لك؟**

ثم تبدأ في التفاف من حوله من شدة سعادتها.. برؤيته وفي كل مرة تتفقده.

- **هل أجلب لك ماء؟**.. تضحك ببراءة
- **حسنا.. سأجلب لك ماء مؤكد أنت عطشان أخي**
- **أنا جائع. أحضري لي شيئا أكله بينما أتوضأ وأصلي...**

ما شاء الله، مازال عمار كما عهدته لا يفرط في صلاته.. أبدا، يسعدني أن عمتي وقتها أصرّت على إدخاله الكتاب ليحفظ القران عند الشيخ.. من وقتها وهو هكذا.. لم يحد عن الخط المستقيم أبدا، تبتسم حتى تكاد تفضح نفسها من فرط سعادتها، حتى أنها كانت في المطبخ تضع الأكل لعمار وعينها معلقة عليه وهو يتوضأ ويتحضر للصلاة كأنها تؤكد لنفسها أنه ليس حلما.

عمار عاد.. عمار هنا... أين أنت يا عمتي لتفرحي معي..

لم تكن تعرف المسكينة أن حلم عمتها كان حقيقة مرة سيحمل أخبار البؤس والشقاء مجددا.. لكن على قلب من ينزل هذا البلاء؟.

جلست شهلا إلى جوار عمار تراقبه وهو يأكل بنهم. كان جائعا جدا وفي كل مرة كانت تسأله هل تريدا خبرا هل أحضر لك مزيدا؟... ما بقلب عمار كان كبيرا جدا... وشهلا تحتاج أن تعرف كل الحقيقة. سيكسر قلبها مجددا. لكنه جلس يحدثها عما جرى له من البداية.. وكيف أنه وصل إلى تلك الصفحة التي لطالما كانت تخفيها العمة عنهما... تلك الصورة الضبابية الغريبة اتضحت ملامحها أخيرا.. ليس بالضرورة أن ما تحمله لنا الأيام يأتينا مطابقا لما نريده تماما... هو السعادة التي نرغب بها على المدى البعيد.. لكنه يبقى حلما تحقق ولو على حساب أشياء أخرى تحطمت.. هي رغم كل شيء أفسحت مجالا لأشياء أخرى كي تنمو في أصيص الحياة ذاك...

ما أراه أنا بناء شامخا يدعو للبهجة والسعادة.. هناك من يراها بناء بشعا يحجم الشمس والحياة.. لكل منا زاوية يرى منا ولسنا كلنا على حق ولسنا كذلك مخطئين... ليتني أعيرك نظرتي ترى ما أراه أيها الجاحد لمعنى الصبر والوفاء لذكريات كانت وما تزال تقاتل للعودة لكن بصورة أكثر وضوحا...

- **أريد أن أعرف يا أخي لماذا فعلت هذا بنا...**
- **لا أعرف.. لكني مصر أن أعرف منها كل شيء.. فأنا مثلك لا أصدق..**
- **ربما كله تلفيق فالحكاية مر عليها زمن طويل. إنها سنوات. إنها عشرون سنة..**
- **عمتي وحدها تعلم الحقيقة.. وستخبرني بها اليوم من دون شك...**
- **انتظر عمار. علينا أن نواجهها معا... لكن لا تحاول أن تظهر لها انك غاضب أو مستاء منها... فمهما كان هي بمثابة أمنا المرحومة..**

- **لا تقولي أمّنا.. شهلا**

- **شئت أم أبيت.. هي كذلك مهما قالوا لك عنها.. لا يجب أن تفقد إحساسك اتجاهها.. يا أخي لا تكن طائشا.**

- **لم يبق الكثير على صلاة العصر. سآخذ قيلولة وعندما تعود أيقظيني**... غير مبال بما تقوله كعادته.

- **حسنا أخي**.

جلست شهلا بترقب في الحوش تفكر فيما قاله عمار.. كل الخطوات التي خيل لها أنها قد مشتها ها هي تعود لنقطة الصفر من جديد.. والمشكلة الأكبر أنها لم تعد تعرف من أين تبدأ من جديد... ضاعت تلك الخارطة الرمادية وتاهت الألوان المتفائلة من واجهتها وبات الأمر كأنها عادت بالزمن للوراء وقد أصابها الغثيان... مرت ساعات ذلك المساء الطويل كالسنين على شهلا لم تعد العمة بعد وقد حل الظلام. خرج عمار ليقوم بجولة في الشوارع وتركها وحدها تفكر في تحضير العشاء لتهدئة نفسها حتى لا تشعر بالوقت. بقيت تدور هنا وهنا ترتب هذا وتمسح هذا.. حتى سمعت صوت سيارة عند الباب. انتظرت قليلا حتى دخلت عتيقة وقد أنهكها هذا السفر. دخلت تجر قدميها عبر الحوش وشهلا واقفة تراقبها ..

- **أين الكرسي شهلا أريد أن أجلس هنا في الحوش. "والحقيني بكاس ما"**

أدنت لها شهلا الكرسي، ناولتها كأس الماء. لم تعرف من أين تبدأ، هل تهجم عليها بذاك الكم الهائل من الأخبار التي لم يعد قلبها يحتمل الاحتفاظ بها أكثر؟ أم تنتظر عودة عمار؟..

- **كيف كانت الزيارة؟..**

- **شهلا. لدي أخبار لك.. دعيني أستعيد أنفاسي قليلا بعدها أخبرك.**

بقيت شهلا تحدق بها باستغراب نفس ما كنت أريد قوله.. "ترى عن أي أخبار تتحدث.."

فجأة دخل عمار البيت ووجد عمته ما تزال بثياب الخروج.جالسة بالحوش وشهلا تلك المسكينة واقفة كالجماد عند باب المطبخ. نظرت إلى عمار نظرة بريئة كأنها تطلب أن يتريث ويتصرف بحكمة.. عتيقة من سعادتها برؤيته لم تستطع النهوض فقد جلست للتو ولم يسمح لها سنها بالوقوف بسرعة فقالت..

- **عمار بني.. رجعت.. خفنا عليك يا ولدي... تعال لأحضاني...**

لكن عمار تصرف ببرود شديد وما تزال شهلا تلمح له بعينيها لكنه لم يبالِ بها.. وجلس القرفصاء إلى جانبها..

- **عمتي عدت منذ الصباح إلى البيت.. كنت في القرية التي ولدت فيها وعرفت كل شيء..**

عتيقة تلون وجهها وأصبح ابيضا كقطعة الصوف... وازرقت شفتاها...

- **يا بني**.. بحروف متقطعة

- **لا داع لأن تخبريني بنفس ما كنت تقولينه لنا...**

- **عماريا بني أنا قلت لكم الحقيقة..**

- لا أرى أن أخبرك بما عرفت.. حتى تخبرينا بالحقيقة. أريد أن أسمعها منك..

- **بمن التقيت هناك؟**.. بنبرة استسلام غير معهودة.

- **التقيت بأشخاص كثر.. أخبروني أمورا بشعة.. لم أستطع تصديقها.. لكنها كانت الحقيقة لأنهم قالوا نفس الكلام...**

- **عمتي قد مرت سنوات، كيف يسمح لك قلبك وضميرك بأن تخدعينا...**

- **أنا لم أخدعكم.. أنا خفت عليكم فقد كان خطأ لم أكن أقصد...**

ثم استرسلت بالحديث بعد أن سارت إلى غرفة عمار وجلست براحة كأنها تستعد لوضع حملها الثقيل..

ثم أخرجت العمة زفرة حارقة من أعماق قلبها.. وبدت لمعة بعينيها وسرحت بهما إلى أبعد من جدران تلك الغرفة... معلنة استسلامها ورغبتها في سرد تلك الحكاية المظلمة من ذاك الزمن الماضي...

- **في تلك الليلة كانت أمكما على وشك الولادة. كانت تتألم كثيرا وكنت وحدي في البيت وكانت أختك صغيرة آنذاك. لم أعرف كيف أتصرف. كان والدكما رحمه الله مختفيا ساعتها ولم نكن نعرف أنه ميت... وحدي في ذلك البيت وأمكما أمامي تموت. سارعت إلى جارتنا. أخبرتني أن أذهب**

إلى عرابة فهي التي تولد نساء القرية.. دلتني على مكان بيتها تماما، كان خارج القرية.. أسرعت إليها.. أذكر أني وجدتها في حالة يرثى لها وكان معها يومها رجل غريب المنظر مخيف.. لم أشأ أن أدخل.. كلمتها من على عتبة الباب واستعجلتها لكنها فور أن عرفت من أنا.. تغير لونها وملامحها ورفضت المجيء معي.. رغم توسلي لها... حتى أني بكيت وناشدت ضميرها وإحساسها كامرأة... تحس بمثيلاتها.. لكن بلا جدوى، أغلقت الباب في وجهي يومها.. بكل قسوة. تتخيلون ما شعرت به.. عدت إلى البيت ورأسي مثقل بالهموم.. ماذا أفعل؟

دخلت إلى البيت. وجدت زينب تحتضر وكانت على وشك الولادة... شمرت ساعتها على ذراعي واستحضرت ما أعرفه من جداتي.. من معلومات حول الولادة...

أرخت العمة رجليها قليلا.. وتناولت رشفة ماء من الكأس الموضوع على الأرض بجوارها ورعشة يديها توحي أنها في قمة توترها لكنها على عكس ذلك ملامح وجهها بدت في الانشراح كأنها تزيح ثقلا عن قلبها بكل سرور... ثم واصلت تقول:

- **ولدت أمكما بيدي هاتين..**

ثم التفتت إلى عمار تخاطبه وبعينيها بحر من الحب والدفء وقد انقشعت عنهما تلك السحابة الحيرى...

- **ولدت يا عمار على يدي. عندما رأيتك شعرت كأنك قطعة مني كأنك ولدي.. خلقت في رحمي.. فانهمكت أعتني بك وأحاول أن ألفك في رداء**

نظيف ونسيت أمر أمك فلما عدت إليها وجدتها قد لفظت أنفاسها بعدما أصابها نزيف...

ثم سرحت كأنها تستعيد اللحظة تماما كما حدثت.. تسترجع الزمن، فأخذت تحاول وصف ما حدث بإيماءات وحركة يديها وهي تحمل عمار بين ذراعيها في تلك اللحظة...

- كانت شهلا خائفة جالسة على ركبتي وأنت بين ذراعي.. وأمكما جثة هامدة بالغرفة الأخرى وحدها. غطيتها وتركتها.. كل ما كنت أصر عليه أنت... أنت فقط... يا عمار... يا قلبي.

في الصباح عندما علم أهل القرية بذلك اتهموني بقتلها وجاءت عرابة بين جموع النساء تولول وتدعي أني لم أذهب إليها أصلا وأني ارتكبت خطأ عمديا بحقها حتى تبقي على ماء وجهها أمامهن "راها تاكل من خيرهم". لم يستمع أغلبية النساء لي وأنا الحاضرة الجديدة بينهم لم تكن تعرفني أغلبهن.. وبقيت عرابة تلك تصر على ما قالت في كل اجتماع بمناسبة وبغير مناسبة... وبعد أيام عن سماعنا لخبر وفاة والدك وتلك الجثة التي وجدوها وقد أكلتها الحيوانات الضالة.. وحسرتي وحزني وشعوري بأني أصبحت بمفردي معكما... وأنني مسؤولة عنكما... بدأ أولاد عمومة أبيك بمضايقتي يوميا، يريدون حلا بخصوص المزرعة التي تركها والدكما... أرسلوا لي إحدى نسائهم.. لتهددني وقد استولوا على الأرض كلية ولم يلقوا لي بالا ولم أستطع أن أتكلم... خفت عليكما كثيرا لذا قررت مغادرة القرية بأسرع وقت ممكن.

قال عمار:

- **عمتي.. لم يكن هناك داع لتهربي. ألم يكن هناك رجال كبار في القرية لهم وزن يدافعون عنك؟**

- **لا يا بني..كل شخص مهتم بمصالحه.. في القرية وأنا لم أكن أعرف أحدا منهم.. وما فعلته في ذلك الوقت كان أنسب حل.. في نظري..**

تتقدم شهلا نحوهما قليلا وتحاول أن تهمس لعمتها سؤالا بذهنها يتردد منذ حكى لها عمار عن الحكاية..

- **عمتي. قال عمار أنك لست أخت والدنا.. أي أنك لست عمتنا.. هل هذا صحيح؟**

- **كيف لست عمتكما؟!!.. والدكما أخي الكبير...** ثم تتنهد وتواصل:

- **هو صحيح أنه ابن عمي فقط لكننا تربينا معا في عائلة كبيرة محبة.. وأحببته كأخ لي.. ولم أنظر إليه يوما بغير تلك النظرة.. حتى بعد أن تزوج أمكما وتزوجت أنا.. كل مشاعري اتجاهه لم تتغير، كان أخي...** ثم سكتت.

الحقيقة أحيانا تتطلب شجاعة أكثر مما يتطلبه الكذب على خبراء في كشف الكذب.. تعلم جيدا أنك مهما بالغت في سرد الحقائق ولفقت الصور ورتبت الأحداث، ستبقى حكايتك ناقصة بنظر من يسمعك وبنظر نفسك أنت قاصر على إقناعها بأن هذه هي الحقيقة..كل ما تستطيع فعله هو وضع نقطة والعودة إلى بداية السطر مجددا.

خيم الهدوء.. الغريب الذي يشعرك بحدوث شيء ما.. غالبا ما يكون أمرا متعلقا بطقوس مبهمة.. تحوم حول المكان.. أرواح تعود من جديد لتسرد

الحكاية.. من وجهة نظر مختلفة تماما.. تلك الزاوية المغلقة.. الزاوية المظلمة... تقريبا نستطيع أن نقول "قد حان توقيت العودة".

نامت العائلة الصغيرة تلك الليلة ولكل منهم علامات استفهام تحوم وتحوم حول الأرجاء دون توقف. هناك لغز لم يفك بعد... من تكون عرابة؟ وكيف مات سي أحميدة تلك الليلة؟ سؤال محير لن يعرف الإجابة عنه أحد.. لا اليوم ولا غدا ولا أي وقت من الزمان... يقولون أن الزمن كفيل بجعل الأمور تبدوا باهتة رغم وضوحها وقسوتها.. وأنه يجعلنا نتغاضى عن أمور آلمتنا بشدة.. وجرحتنا في وقت ما.. آه من الزمن... ذلك الدواء الشافي .يمنحنا فرصة التعايش والتكيف.. بقدرة من الله... فلا شيء يتوقف عند حد معين. عند ألم معين أو حزن معين، الحياة تدور في فلك، ولا تتوقف إلا بإذن ربها...

في ذلك اليوم حينما ذهبت العمة إلى زيارة السيدة زبيدة..كانت تحمل في قلبها نبضات منعشة أعادتها لشبابها الذي فقدته منذ أخذوا منها فاطمة حبيبة قلبها ووجدانها... وهي تجلس مع زبيدة وتسرد لها تفاصيل حياتها أدركت أن وداد ماهي إلا فاطمة الصغيرة التي انتزعوها من أحضانها عنوة بظلم.. ها هي تلتقيها مجددا وبحفل زفافها تزغرد لها دون أن تدري.. كانت تشك.. وكان قلب الأم يخبرها بوجود حنين غريب نحوها من البداية.. لكنها لم تخبر زبيدة بشكها حتى تتأكد..

وزبيدة تسرد القصة كانت تدمع عيناها وتمسها بأصابعها في كل مرة حتى احمرت خدودها من كثرة ذرف الدموع المالحة.. أدركت حبها الشديد لها.. وما

قدمت لها هي ربما لم تكن تستطيع عتيقة أن تقدم ربعه حتى... مع الفقر والخوف والهرب.. وطفلين صغيرين ترعاهما وما كانت تجنيه من أعمال الخياطة.. لم تكن لتحقق لها ما حققته لها هذه السيدة.. لكن لابد للحقيقة أن تظهر.. قالت عتيقة..

- أنا يا سيدة زبيدة.. لا أريد أخذها منك أنت أمها. وهي ابنتك. أنا أريدها أن تعرف فقط أني لم أهجرها بل أجبرت على ذلك.. وأني بكيت طويلا وتألمت على فراقها.. ولكني لم أفقد الأمل في لقائها... وطبعا لن أقول لك أعيديها لأهلها الحقيقيين.. فليس من حقي ذلك..

- ليس لها أحد إلا أنا.. في هذه الحياة.. ولن يأخذها أحد مني منذ سميتها وداد بدلا من فاطمة قصدت طمس امتداد العائلة التي أنكرتها.

- أعرف شعورك.. ولن ألومك فقد ظلموني كثيرا أيضا وظلموها.

- زوجتها من شخص يستحقها وهو قريب لي لأراها كل ما اشتقت لها. أما أنت فلن أمنعك من رؤيتها بل بالعكس لها كل الحق أن تتعرف عليك وتعرف منك الحقيقة.

كانت صرخة الحياة من طفل للتو نزل من بطن أمه.. معلنا دخول معترك جديد لم يعهده بكل قوة وشجاعة.

جلست عتيقة مطولا ذاك اليوم عند زبيدة.. وتكلمت عتيقة عن تربية أولاد أخيها وما عانته منذ خروجها معهما من القرية.. وكانت زبيدة تستفسر كثيرا حول شهلا وطباعها وأدركت تربيتها الحسنة ومعدنها الأصيل الطيب وعرفت حجم معاناة هذه الفتاة وصبرها وأحبتها كحبها لوداد تماما.. وبقيتا

معا في غرفة الجلوس تتبادلان أطراف الحديث والذكريات.. مما أعاد لكليهما الحياة... مع كل رشفة قهوة ذكرى تعود وحكاية تروى من جديد.. هذا معترك الحياة لم يكن ليبدو أكثر جمالا.. لولا هذا المزيج من حلاوة السكر ومرارة القهوة...

في سردنا للحكايات والقصص التي تحدث معنا ولو على نحو الصدفة نحن نغفل عن أحداث كثيرة منها ما هو مقصود ومنها ما كان سهوا.. والكاتب الأعظم لا ينسى ما كتبه لنا محفوظ في كتاب مكين...

كانت العودة للقرية في يوم مشمس صاف معلنا عن إذابة الثلج الذي غطى حقائق التلال . ولنقل هي لحظة من زمن مفقود حين عاد الطفل الرضيع رجلا مشمرا عن ذراعه يريد حقه واقفا في وجه كل من يظن أن الدماء قد تصبح ماء...

– لا والله.. دماء أبي الطاهرة هنا.. وإليها عدت... رائحة الأرض كرائحة الورود تزيد من روحي روحا جديدة لا تفنى... أريد أن أحيا حياتي أنا دون خوف أو خجل من أصلي أواجه مصيري.. بما أملكه في قلبي من شعور بمسؤولية اتجاه ما تركه أجدادي لي هنا.. لأحقق ما أراده لي أبي رحمه الله سأحمل المشعل الذي تركه لي وقد حاميت عليه طوال تلك المدة حتى لا ينطفئ من ريح غدركم.. وبقلبي بذرة أريد غرسها وهذا موطنها الأصلي.. فلتسقِ الأيام زرعي ولتعمر هذه الأرض الزكية.. ولتنعم بالحب والسلام...

كلمات ضجت بها روحه، رجولة لم يعهدها من قبل، كان أقوى أشد صلابة كأن الطريق أمامه صار ممهدا نحو هدف محدد، كانت عمته على يمينه

وشهلا على يساره ببريق عينيها وعنفوانها وقد أمسك بقوة بيد عمته يحميها ويده الأخرى على كتف شهلا الواقفة بكل جهدها مستندة على أخيها الذي لم تظن به يوما ذخرا وظلت تخشى عليه.. أصبح اليوم جناحها الذي تحتمي تحته من قصف قادم الأيام، ومهما كان لم يعد هناك مجال للتراجع.

– **هنا أحلامنا غرست ذات يوم وهنا مازالت بذورنا حية ستنتعش وستنمو وليس لنا غير أرضنا هنا..** نظرات متكلمة وعيون شهلا الشهلا تصرخ متعطشة للحياة.

هل تخيلت يوما أنك تعيش حياتك للوراء.. أنك لا تسير للأمام بل تتقدم للخلف؟ (عد للوراء لتنطلق أفضل وتصل أسرع) هل هذا المقصود..!! أم أنها لم تعد قضية وقت بقدر ما هي معيار للزمن الذي نحسه... والذي يختلف تماما عن الساعة الرقمية.. التي تدق وتدق طوال اليوم وعقاربها تتسارع في حلقة... لا تدري أهي تسير فعلا أم أنها تدور في مكانها بمنطق.. ومقياس فلسفي محض... إنها لفي مكانها منذ الأزل لم تتحرك..

شيء آخر كان يتلاشى وينقضي.. هو في داخلنا فقط دون أن نشعر أو نحس.. ترى كيف هو..!!؟

وما هو الوقت!! والزمن!! والعمر!! والحياة!! هي أنفاس آنية زائلة بزوال اللحظة.. معنى أكبر وأعمق من أن يوصف في بضع ثوان.. هو فوق وصف الكلمات وتصور الذهن وأثقل من يحتمل على أي شاكلة حمل...

****

بعد مرور سنوات...

خلف ستـار النافذة... وقفت تنظر بلا غاية للأفق هناك، شمس مشرقة، زقزقة عصافير الربيع تخالط مسامعها... هدوء وطمأنينة لا مثيل لها.. لا ترقب شيئا سوى لحظات من تاريخ، ها هو يكتب من البداية ليس ذاك القديم الذي نعرفه تحررت روحها وأغشاها السكون كأنها لن تفيق بعد هذا، وتلك البراءة تشد يدها.. تراقبها بانتباه.. تنادي بصوت ملائكي "أريد حليبي"

ما زالت بقلبها الشارد كما اعتادت لم تتغير...

مضت بشرودها.. وخلفها غبار لم يكنس، صحون متسخة وسرير غير مرتب.. و.. و.. وفي قلبها رتبت كل مشاعرها كما لم تكن تظن يوما أنها ستفعل، أوقدت تلك الشعلة القديمة المنطفئة ومسحت ذلك الغبار المتراكم حولها، كانت شجاعة إلى الدرجة التي جعلتها تمضي دون أن تكون هاربة من شيء ولا خائفة من حدوث شيء، نادتها برغم كل شيء "أمي" لكن للأسف بدا الصوت بعيدا خافتا متقطعا لم يغرِ مسامعها، كما لو كانت تنادي من وراء حواجز كثيرة تكظم مخارج حروفها.. تمايلت كأنها تهيم في غير هذا العالم ترمي بخطاها حيثما رمت، باب مفتوح بصدرها لكن بلا قلب يتوجع.. تناجي تلم الروح الهائمة.. ملامح تلونت بعينيها وبريق الأفق أصبح يقترب.. وهذه المرّة قد أجمعت أنها لم تعد تبالي.. نادتها بأعلى صوتها وشدت ثوبها بأصابعها الصغيرة حتى غابت نبراتها.. وتلاشى ذلك الصدى... خلف أمل سعيد...كانت تسبح بقلب بريء كتلك الطفلة الجائعة إلى جانبها وضياء

الفجر الجديد.. ينير ظلام الغرفة... ودون هواجس فقط.. حلم تحقق تريد أن تعيشه كله.

حلم وردي تألق وانعكس مع شعاع الشمس على جدران الغرفة فأحالها قطعة من الجنة وهي كالحور العين لؤلؤة وسط البريق.. وتلك الملاك ابتسمت فرحا بذاك النور..

فمن رحم السعادة تولّد الحلم الجميل هنا وعلى قيثارة المشاعر تراقصت خيالات من شروخ الذاكرة، حتى لا تنسي، ترنمي، واصلي العيش هناك... داخل مسرحك تنمو الحياة من جديد... واسقيني أملا لا يفنى...

بعد مرور سنوات ...

خلف ستـار النافذة.. وقفت تنظر بلا غاية للأفق هناك، شمس مشرقة، زقزقة عصافير الربيع تخالط مسامعها... هدوء وطمأنينة لا مثيل لهما.. لا ترقب شيئا سوى لحظات من تاريخ، ها هو يكتب من البداية ليس ذاك القديم الذي نعرفه تحررت روحها وأغشاها السكون كأنها لن تفيق بعد هذا، وتلك البراءة تشد يدها.. تراقبها بانتباه.. تنادي بصوت ملائكي "أريد حليبي".

مازالت بقلبها الشارد كما اعتادت لم تتغير...

مضت بشرودها.. وخلفها غبار لم يكنس، صحون متسخة وسرير غير مرتب.. و.. و.. وفي قلبها رتبت كل مشاعرها كما لم تكن تظن يوما أنها ستفعل، أوقدت تلك الشعلة القديمة المنطفئة ومسحت ذلك الغبار المتراكم حولها، كانت شجاعة إلى الدرجة التي جعلتها تمضي دون أن تكون هاربة من شيء ولا خائفة من حدوث شيء، نادتها برغم كل شيء:

- "أمي"

لكن للأسف بدا الصوت بعيدا خافتا متقطعا لم يغر مسامعها، كما لو كانت تنادي من وراء حواجز كثيرة تكظم مخارج حروفها.. تمايلت كأنها تهيم في غير هذا العالم ترمي بخطاها حيثما رمت، باب مفتوح بصدرها لكن بلا قلب يتوجع.. تناجي تلم الروح الهائمة.. ملامح تلونت بعينيها وبريق الأفق أصبح يقترب.. وهذه المرّة قد أجمعت أنها لم تعد تبالي..

نادتها بأعلى صوتها وشدت ثوبها بأصابعها الصغيرة حتى غابت نبراتها.. وتلاشى ذلك الصدى.. خلف أمل سعيد..كانت تسبح بقلب بريء كتلك الطفلة الجائعة إلى جانبها وضياء الفجر الجديد.. ينير ظلام الغرفة.. ودون هواجس.. فقط.. حلم تحقق تريد أن تعيشه كله، شهلا حلم وردي تألق وانعكس مع شعاع الشمس على جدران الغرفة فأحالها قطعة من الجنة وهي كالحور العين لؤلؤة وسط البريق.. وتلك الملاك ابتسمت فرحا بذاك النور. فمن رحم السعادة تولّد الحلم الجميل هنا وعلى قيثارة المشاعر تراقصت خيالات من شروخ الذاكرة، حتى لا تنسي، ترنمي، واصلي العيش هناك داخل مسرحك تنمو الحياة من جديد.. واسقيني أملا لا يفنى...

حينما نظن الحكاية انتهت نكتشف أنها تأخذ استراحة فقط، ومن نظنهم رحلوا لم يرحلوا حقا.. هم من حولنا بأرواحهم الهائمة ربما ينظرون إلينا بغير عيونهم التي نعرفها. عيون أخرى سكنوها ليراقبوا حياتنا ويعدوا أنفاسنا، ذاك البائس الضعيف سيقوى بالكره.. سيولد هناك تحت الرماد، ليصبّ الانتقام على جمرنا الخامد ليشعله، ويزيده اتقادا ولن ينجو منا أحد..

هناك بالمرتفع روح جثت على ركبتيها تنتعش للحياة تشتعل انتقاما، وتردّد:

- **أنا لن أموت، والحكاية ستستمرّ...**